د. حسن البنداري

الجـــــرح

(قصص)

الطبعة الثالثة

الناشر
دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع
القاهرة - مصر القديمة ٩٥٣ كورنيش النيل

تصميم الغلاف: للفنان عطية الزهيري

الرسوم الداخلية:

في القصة الأولى: للفنان د. كمال السراج

في القصة الثانية: للفنان د. زكريا الزيني

في القصة الثالثة: للفنانة د. زينب السجيني

في القصة الرابعة: للفنان د.سامي رافع

في القصة الخامسة: للفنان د.عبد الرحمن النشار

الجرح

قصص

المؤلف: حسن البنداري
العنوان: الجرح (قصص)
تاريخ الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨
رقم الإيداع: ٢٥٤٣١/ ٢٠٠٧
الترقيم الدولي: 9- 48- 612- 977 I.S.B.N
الناشر: دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع
العنوان: ٩٥٣ كورنيش النيل – مصر القديمة.
البريد الإلكتروني: E.mail Darelebdaa@hotmail.com
ت: ٢٥٣٢٦٧٤٤–٢٥٣١٢٣٢١ –٠١٠٦٦٣١٥٨٤– ٠١٢٢٢٤٦٠٦٨
رئيس مجلس الإدارة: د. هدى الكومي
المدير العام: منى عثمان
مدير التحرير: محمد عبد الرحمن بدوي
مدير العلاقات العامة: مها عبد الفتاح عثمان
مدير المبيعات: أحمد فضل
لوحة الغلاف: للفنان عطية الزهيري
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة
صدرت الطبعة الأولى عن لجنة النشر للجامعيين عام ١٩٧١ .
والطبعة الثانية عن مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩١.

الناشر

مقدمة الطبعة الثالثة

يتناول الكاتب الدكتور حسن البنداري في هذه المجموعة القصصية شخصيات فنية موازية لشخصيات واقعية عاشت قبيل حرب ١٩٦٧ ، وأثناء حرب الاستنزاف الحافلة بالبطولات والتضحيات التي كشفت عن عمق ارتباط المصريين بالأرض، واجتهادهم المتواصل لعبور القناة وتحرير سيناء ..

وسوف يلاحظ القارئ مدى الترابط الوثيق بين القصص الخمس التي انطوى عليها هذا الكتاب ؛ فإذا كانت القصة الأولى "الفارس والعسكري" ١٩٦٦، تلقي الضوء على مجتمع تلك الفترة المليئة بالسطحية واللامبالاة والجري خلف الشعارات الواهية، بحيث نرى أن كل قيمة لا تحتل مكانتها الطبيعية فيتبادل عسكري الإشارة والتمثال المكان .. إذا كان مجتمع تلك الفترة قد اتسم بهذه السمات، فإن القصص الأربع الأخرى المكتوبة فيما بين سنتي ١٩٦٩ و ١٩٧٢ – أيقظت طوائف هذا المجتمع على الكارثة الرهيبة وجعلتهم يحاسبون أنفسهم ويراجعون ما حدث ، ليتخذوا

في النهاية موقفا موحدًا صلبًا أدى إلى العبور والتحرير في حرب ١٩٧٣ .

وقد عبّر الكاتب عن موضوعات القصص الخمس بأداء فني جمع بين ظاهرة "تيار الوعي" الكاشف عن طبيعة الشخصيات الفنية، و"ظاهرة التناص" الفني قبل سنوات من تردد مصطلحه في بيئتنا الأدبية والنقدية .

د. هدى الكومي

رئيس مجلس إدارة دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع

محررة عسكرية بالإعلام العسكري

عضو اتحاد الناشرين

الفارس والعسكري



(١)

.. والميدان معبأ بالشمس . دائري . يبدو من الثالث اكثر استدارة ، والجواد الشامخ مغروس في القاعدة تتوسط السياج الحديدي القصير فوق خضرة ذات زهور رمادية .. كانت بيضاء ، وراكب الجواد الشامخ ما زال يشير بكف متصلبة إلى "يافطة" الشركة، يرميني منذ ألف عام بنظرة واحدة حمراء . متحدية ، كانت صافية. تثير في النفس عواصف الغضب ، وعسكري الإشارة رمادي .. كان أبيض . يتحكم في حركة البشر بلا سأم، فيتولى الميدان نظام رتيب يضجرني . تفرج الإشارة عن الطريق لتعود إلى شله من جديد . خرج النفس من الفم .. عاد النفس إلى الفم .. لعبة مسلية لمن يمضي مليون ساعة في الجو الشمسي، بينما لا تكف ساعة "الأوبرا" عن التذكير بالرجل . ! غادر .. غادر ..

غادر .. غدر بي، غدر بي، غدر بي . لماذا بعد الأيام والشهور والسنين غدرت بي ؟! . .

(٢)

أعيد أشعة عيني للحظة ثم أسقطها على المسافة الممتدة بين قاعدة التمثال وصندوق الإشارة . قصيرة . كان يشغل المسافة بطوله وعرضه . كان فخمًا وجميلاً . بين الاثنين يبتسم وينحني فأقفز إليه. فما رأيت باب الشركة، ولا أحسست بهبوط الدرج . فقط بمجرد أن يبتسم وينحني أجدني بين يديه، فيتأبطني فأسبح فوق الأشياء حالمة غائبة نائمة لا يوقظني إلا وجه أبي الطيب . .

يحييني دون توقف عن ترتيلاته وأوراده، يدعني لجرذانه المبعثرة في الصالة تتسابق نحوي بصراخ رفيع : "أبله جاءت . هات الحلوى ، الحلوى، الحلوى" . فأستجيب للوجه الطيب والأصوات الرفيعة، لأني عاقلة ووقورة ومسئولة . "المعاش قليل . قليل لا يكفي . علمتك لثقتي من حلول هذا اليوم" . فأهرع إلى حجرتي أغلقها لأنسى ، لكنني سرعان ما أضل في صفير حاد بأذني، وكائن خفي لذيذ قبيح يرهقني حتى النوم على صوت ساخر: "يا فرحة الوقورة بالبكالريوس" ، يا فرحتك . كيف

والرجال يأتون وينصرفون ولا يعودون ؟ فأحزن وحدي وأحزن، وأصرخ في سري : متى يعودون ؟ متى تعودون ؟ ! ..

ولا أم لتستقبل الأسرار . بعد الوفاة وقبل الأربعين أحضر أبي الحزين الثانية "أنا أنفذ رغبة المرحومة" . هو ينفذ رغبة المرحومة.!! ما جزاء الكاذب على الأموات؟! . شابة وجميلة زوجة أبي . جسدها دائم الحركة يتحدى كل البشر بينما أسأل مرة أخرى لماذا لم يعد من شاهد، وقلب النظر ثم انصرف ؟. . لكني أصرخ في سري متى يأخذني ؟ . متى تأخذني ؟ . عبدة له سأكون. عبدة لك سأكون . يدك جريئة وماهرة تزيل كل أثر . مسافة طويلة قطعتها معك . فلماذا بعد الأيام والشهور والسنين غدرت بي ؟! .

الثانية إلا الربع . ساعة الأوبرا دقت مرة واحدة؛ لأن الساعة بلغت الثانية إلا الربع . أبعثر نظراتي القلقة في الميدان تبحث وتنقب . أين رجلي أين ؟ . المسافة خالية بين العسكري الرمادي والتمثال المغبر . أين صديقي أين؟! . أنا السبب . عملت بالوصية "حذار من أن تفقدي احترام الرجل" نصحتني كاتبة "حواء" فتبعتها "وصوني نفسك له" . كاتبة المجلة نظرية قليلة الخبرة، ولّى صديقي .. هرب ولم يعد . لن تهرب منذ الآن الحسناء . لن تستمع

إلى نصائح أحد . الآن فليعد الساحر، ليحتوي المسحورة، عُذ . احتو المسحورة . الجأ بها إلى الظلام الأخير . .

لكن الوقت سيمر دون لقائه كما مر زمن الأمس وقبل الأمس وقبل قبل ... أف . وأرفس الأرض فأهتز . اهتز جسد الحسناء. الحمالة اليسرى على مقدمة الكتف . أرفعها لبرهة . أبتسم. سوداء تحت البنفسج . أرفع يدي وأعيد الحمالة . وأجعل زجاج النافذة مرآة مؤقتة . أراني جميلة . الصدر مشدود صلب وممتلئ . والحجرة والممر أمام الباب يغلفهما صمت مريب . خرج الموظفون . خرجت الموظفات . ينتهي العمل في الثانية . باق خمس دقائق . فلماذا خلت الحجرة والممر وغلفهما الصمت المريب؟ ..

وفي صالة البيت كل ليلة أنصت في الصمت المريب لأقدام حذرة خلف بابي المغلق . فراقبت . راقبت المرأة بجمالها الذي تحدى كل البشر . زوجة أبي تخرج من الشقة، متلصصة حذرة في كل ليل مصاب بالصمت المريب . لاحقتها . أنا جاسوسة ناجحة . أبي يا مسكين . المرأة عند الجار . أبي يا طيب يا مسكين . صارت عينا الجار – أيضًا – تشتهيني .. أبي . الجار . احذر . شمشون

يمسح شاربه، ملطخ بروج المدام . لكن ما ألبث أن أسكت، أجتر صرخاتي فأصاب بوجع الدماغ . وعندما تحتويني عينا صديقي أنسى كل شيء . أين صديقي أين ؟ . لماذا بعد الأيام والشهور والسنين غدرت؟! ..

(٣)

الجو خال . الجو خال . ضلفة زجاج النافذة المفتوحة مرآة تعكس نصفي الأعلى أناملـه . هكذا كان ينظر الرجل. أتراجع وعيناني في المرآة . أضحك ثم أعود إلى المرآة بينما نظراتي تنزلق من فوق البلوزة البنفسجية . هكذا كان ينظر الرجل ..

أدير رأسي بسرعة على حركة خلفي . خصلة من شعري الأشقر انفصلت . أعيدها وأنا أتابع الساعي مصدر الحركة الآتية من خلفي . أزرار صفراء . وجه أصفر . السترة صفراء مفتوحة . شعره بالصدر العريض مدبب . كثيف . أطمئن مرة أخرى على أزرار بلوزتي . لكن عيون الساعي تتكئ بجرأة على صدري . يواجهني . عنيف . تنبعث من شعر صدره العريض المدبب رائحة غير عطرية . همس بوقاحة :

- افتكرت .. إنك .. خرجت .

قلت في نفسي أبتسم : خبيث وكاذب لا أصدقك . وأهرع إلى مكتبي دون كلام راسمة ابتسامة جامدة . قال بوقاحة :

- دفتر الوارد .

ثم أسند باطني كفيه على حرف المكتب. نظرت . ظاهرًا الكفين أخضرين .. أجلس بضيق على المكتب متوقعة أن يمطرني بأشعاره "أنا أقرض الشعر يا آنسة" فتساءلت معجبة : حقًا ! . فتوالت منه الأشعار، وأنا أحب أن أسمع . وقلت : أنت موهبة مدفونة . ويقول: فإليك أيضًا هذه القصيدة فأسمع . وأنا أحب أن أسمع . وحدثت صديقي عن قصيدتي الساعي : "الشمس المذبوحة" "القمر المطعون" وقصيدة "الحزن الكوني" . أبي أبي أحزان هذا الكوكب . ناء بها قلبي الصبي . فقال صديقي . كيف ؟! إنها لشاعر كبير . فمزقت كل أوراق الكاذب . أصيح به :

- الدفتر

لكن لم يسحب كفيه . ظل يحفر في صدري . أضطرب : فليذهب الكاذب . فليذهب الكاذب . يغزو أنفي عرق الصدر العريض المدبب غير المعطر . أصيح فيه محتدة :

- تريد شيئًا آخر ؟

فيهرب . يجري . لا يهمني ساعي الصعيد الأصفر . لا يهمني.. لا يهمني في شيء ..

(٤)

أمد ساقيّ راجعة بالمقعد إلى الوراء . إلى الحائط . فبدت ركبتاي مكتزة بلا عظام ، فأضحك وأعود بالمقعد . أنهض وأمضي إلى النافذة . أنا راضية . أجلس فوق رأس الفارس . مركز مراقبة ممتاز ومناسب . فقط التمثال والإشارجي وحركة الميدان التي لا تتوقف ..

ساعة الميدان المنذرة بالخطر تهرع إلى الثانية فأعيد بصري إلى الزجاج المرآة يعكس وجهي الصافي الناعم. وأتذكر ؛ "الأندلس" . حديقة ضمتنا ذات ماء ليلي .. تحت التعريشة قال صديقي : أنت جميلة ولطيفة ورائعة . أصدقه . ينسيني الزوجة الخائنة المحصنة بالقرص السحري بعد أن ينام أبي العجوز . ويكرر صديقي : أنت جميلة ولطيفة ورائعة . فسمحت ليده أن تمتد وتلفني، بينما ارتفعت الأخرى إلى سقف التعريشة تقتلع المصباح . قال :

ـ لا أستطيع أن أتزوجك . ويمكن أن يظل الحب بلا زواج .

فوافقت الحسناء . لكني مضيت غير قانعة إلى بيتي لتغيبني أمواج الظلام المؤقت . نمت ليلتها حزينة . لكن ذهبت في اليوم التالي . لكن هربت من يده ونظراته رغم إلحاحه وغضبه . وسمعت ليلتها صوت أبي : "قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن" . وسمعته يقول: الزمن الأول موءود . صخور الجزيرة لوحتها الشمس والريح . فصاح الثائر في وجه المد الزاحف : أنذر القوم بأكبر الغضب . لكن داسته الأقدام . أقدام لا ترحم داسته ، وأخرسته أيد صنعت باب حديقة مشبوهة . .

بباب الحديقة يا أبي عسكري يقطع تذاكر العشاق . يدخلون إلى "التعريشة" المضيئة المظلمة . على رأسه لافتة "رسم الدخول ٢٥ مليمًا" . نظر إلينا بخبث وأفسح الطريق . وسمعت صوت أبي يقول : "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" . أنا مستعدة . لكن يا أبي ستحاصرني ساخرة شفاه المدينة العصرية بكلمات : تطور عكسي . خالف تعرف . حركات. وأنت يا أبي يا طيب : هل تجد العون في القراءة ؟! بصمات شارب الجار على خدي المرأة المهتاجة لا تزال .

(٥)

دقت الساعة دقتين . أصوب إليها بصري . أتوتر أرتجف ؛ الثانية . وأعيد مسح الميدان من جديد . "ياني" . لا أثر للرجل . "ياني" . وتنفض الشركة الآن لتبدأ في الخامسة الفترة الثانية . "ياني" . وكنت أول الخارجين لأراك ولكني صرت أتلكأ لأكون آخر من يراه الساعي يغادر الأبواب الثلاثة . المكتب والشركة والعمارة ..

(٦)

أدنو من المكتب . ألتقط حقيبتي السوداء . وفي الممر الضيق يلاحظني الساعي بحاجبيه الأسودين الغزيرين، وصدره المفتوح عن شعره المدبب ويقول ..

- مع السلاااامة .

يطيل اللام . جرىء .. أفهمك . أجيب بهزة من رأسي وأواصل السير . في دقائق صرت في الميدان .. أتعجل نور الإشارة الأخضر لأنماع في الميدان الدائري يتلقى جلد الشمس بصدر رحب . الشمس لاذعة . سواده تغرس فيه عجلات

السيارات، ونعال الرجال المسطحة وكعوب النساء المدببة. من تحت الميدان أكثر اتساعًا..

أرى الإشارجي الرمادي .. كانت ملابسه بيضاء . دائم التطلع إلى الفارس التركي كلما وثب النور الأحمر، وإلى المشاة المنتظرين . الجزاء مصير كل متمرد يكسر الإشارة ..

الإشارجي الرمادي .. كانت ملابسه بيضاء . يقذفني بنظرة : لم يأت يا آنسة . ونظرة : أعرف ما بينكما أعرف . فأمشي يضايقني ملح الوجه ويؤذي أذني الضجيج . لكن أنسى الملح وأنسى الضجيج بذراع تلفني ، آه ؛ سعيت إليك بعلم أبيض . دخلت منزلك إلى قرحة . حطمت جدران خوفي . لكن أردتني بلا ورقة !! هربت ولم أغضب . لكنك تواريت عني تواريت .. فلماذا بعد كل ما كان بيننا تتوارى عني ؟! .

(٧)

لم يحضر .. أخلف الموعد !! . لكن لن يعوق الحسناء شيء . تبحث عيوني عنه . أنظر للعسكري وأمشي . احجزه يا عسكري لو حضر . قل له إنها هنا تنتظر . فهم العسكري: ابتسم . أقصد السور القديم أقلب الكتب بيدي بينما عيوني على الميدان الخالي

منــه تبحـث عنــه .. تركتنــي يـده يومًـا والتقطـت مـن الأزبيكـة كـازانتزاكي . تـأبط "زوربـا" بعـد أن دفـع الـثمن . لاحـظ غيظـي ونحن نبتعد عن السور فأهداني الرواية : "إلى حسناني فقد تجد في هـذه الروايـة إجابـات كثيـرة" قـرأت وقـرأت . فحفظـت سـطور الرواية ..

(٨)

الآن تعبت عيوني، وعرق أغسطس يسيل .. يتجول بحرية، وما من ظل يقي وجهي الأبيض . العيون خضـراء حساسة تعاني مـن الشـمس . وهـاهو يقـول : "أنـت أنثـى كاملـة، عكس الرجـل الكامل" .

- أنت أنثي ..

فأحببته لنلتقي بالأيدي والعيون . ويحملنـي بعدها الترام القديم إلى حجرتي المحكمة : "كامن في القلب كمون النار في الحجـر" . وتشدني المرآة فلا أهتم "أخفي من أن يرى وأبين من أن يخفـي". ملابسي . "السر الممنوح ميراث الزمن الأول" . تنشط في الظـلام كائنـات غير منظـورة . "أومن كـان ميتًـا فأحيينـاه" . لست بقـادرة على الهرب من كلام أبي الطيب المسكين . لكن لا يلبث أن يطوى

صوتَ أبي الصفيرُ الحاد، والظلام الثقيل ، والكائنات القبيحة في ظلمات الليالي الطويلة الموغلة في الطول ..

(٩)

محطة الميدان الثاني تحتضن الزحام الملون . الناس كثيرون . الترام القديم الصاعد إلى القلعة تركبه الحسناء. شبكة الأسلاك الكهربية المعلقة حاجز بيني وبين الزرقة . لكنه "كامن في القلب كمون النار في الحجر" . فقال صديقي : "لا أمل في الوصول ما دامت الأسوار قائمة" . فقلت لصديقي : لكن "الثائر" صمد، ولم يمنع المد الأسود من توالد الأتباع . فصاح : "اسمعي : ماذا صنع المعلم في زوربا؟ . "النيرفانا" خرافة . لقد أخرج نفسه من دائرة الظل . لقد قادها إلى الجسد" سكتَ . خفت . لم أعترض . رفعت العلم . لكن كاتبة حواء سرعان ما أطلت وأنا في حضنه تذكرني فهربت .. هربت . آه .. كاتبة قليلة الخبرة ! .

(١٠)

الثانية والنصف . ساعة البريد دقت . حبيبي على كف عفريت. في نهاية الترام فجرها قنبلة وقت الغروب. أكره ساعة الغروب . - "عزيزتي فلننه ما بيننا".

صمتّ لم أعترض، وأجبت في نفسي : يغضبك هروبي وسوف يرجع إليك عقلك فلتباركني كاتبة حواء . في قلب الليل جلست وحيدة أندب حظي العاثر . فلتباركني كاتبة حواء . بكيت حتى بهتت عيوني الخضر من البكاء. ذهبت إلى الشركة بعيوني الباهتة، صحبتني "سورمولينا" أرملة الرواية . امتنعت سورمولينا على الرجال وأرادت المعلم . ساعي الشركة اللئيم تحول إلى "دلال" بجرس . فتطوعت عيون محمومة لمرافقتي . وتأهبت في الرواية عيون رجال الجزيرة ونسائها للعمل . وازدادت الأزرار الصفراء جرأة . تدنو وتدنو وتدنو مني الأفواه، يدنو من زوجة أبي كل ليلة جارنا الشمشون ..

(١١)

العفريت جالس فوق سطح مظلة المحطة . يده خالية. يبحث عنه مثلي . المحطة حضر إليها الترام . لكني لا أصعد إليه . أصعد إلى سطح المحطة باحثة عن رجلي أفتش عنه في الألوان المتعارضة والأحجام المتضادة . أنا تعبت ، وأنا وقور ، وأنا لا أستريح في نومي ويقظتي، وأنا وقور يشقيني الصمت والضجيج.

لكن خلف بابي المحكم المغلق يستبد بي الشوق فيتهاوى وقاري المزعوم .

عجلات الترام القديم لا تدور . قلت الأيدي الصاعدة والهابطة . ينتظرني ؟ . أسمع صوت العفريت الجالس فوق السطح . رجلك هرب ولن يعود . سآتي به إليك في طرفة عين . أشكرك . أشكرك. أهمّ بالركوب .. أتراجع؛ فلأرجع عائدة أمشي في نفس الطريق؛ ربما ألقاه .. لديّ ما يشده إليّ محفور في سمعي همسة : أنت نادرة وجميلة وأصيلة وبنت ناس .

أغادر المحطة . أنساب في الشارع . ظهري للميدان وللعفريت . أمشي على خطواتي السابقة متلكئة .. ها هو الميدان خال منه . عيناي على سنابك الجواد الرمادي . أنا ينست. لا أحد يشغل المسافة بين قاعدة التمثال وصندوق الإشارة . لم يجئ صديقي . تسخن أذناي . وفكرت : الشركة مالت عنها الشمس . ساكنة لا يغادرها الساعي. قادم من بلاد الصعيد . الشركة عمله ومسكنه . نزّت من قلبه الشكوى ذات يوم . صدقته . ملت إليه .. الآن أنا لا أصدقه لا أصدق الكاذب . لا أصدق الساعي . لا أصدق أحدًا ..

(١٣)

أتجـاوز الميـدان تعبـة . أنقـر الرصـيف المـؤدي إلـى الشـارع التجـاري .. شـارع فـؤاد . "زوربـا اليونـاني" بـالخط العـريض . إعلان سينما أخلفه ورائي . الرجال في الشارع أقل عددًا . النساء أكثر . مـا سر إشارة الفارس الرمـادي ؟ أنـا أتسـاءل . الإشـارجي يتساءل . نحن ننتظر الجواب . بطل بطل، فتح بلاد العرب،إلى هنـا داس الثـائر، بطـل بطـل . مـاذا لـو تبـادل العسكري والفـارس المكـان ؟! حلـم لا أستسلم لـه . سـورمولينا أحسنت صـنعًا . كاتبـة حواء قليلة الخبرة. أرفس حواء بلا ندم ..

الشـارع صـاخب شـديد الحـرارة . لا أسـبح فـوق الأشـياء . يضـايقني الحـر . ذراعـي لا تعابثـه أصـابع الرجـل .. "كـايرو بالاس". زوربا اليوناني في ثلث الشارع الضيق . على جبهة مبنى السينما يرقص رقصة الألم.

أتجاوز الناصية . أتهادى إلى باب السينما . عيوني علـى أقدام العجـوز الـراقص . "أنتـوني كـوين" . "سـورمولينا" . "المعلـم" . الروايـة . الصـور . والساعة في معصمي قديمـة غيـر ذهبيـة وغيـر فضيـة . الثالثة . و"كايرو بالاس" تحمل أجمل الذكريات ..

أصـعد الـدرجات الأربـع . أدخـل . أمـرّ بنظـرات شـاب هـمّ بمعاكسـتي . انـدفعت بوقـار إلـى الردهـة . نسـيت الشـاب. تقـودني "بطارية" القاعة المظلمة إلى رقم المقعد. يـاه . متطـرف . بجـواره مقعـد خـال . وممـر هـابط. أجلـس والتكييـف يخفـف مـن العطـور الممتزجة بدخان السجائر . أنفي يستقبل الرائحـة الرطبـة . "حاجـة ترد الروح" ..

خـدر لذيـذ يريحنـي فـأرخى جسـدي . أفـرد سـاقيّ تحـت المقعـد الأمـامي . أتبـين بعـد المقعـد الخـالي – صـبية بنظـارة . ضـعيفة البصـر . لم يشغل المقعد الخالي بعد . ليكن الشاغل رجلاً . والممر الهابط لا تطأه قدم . ليكن الشاغل رجلاً ..

تشكيلة الرءوس تتابع الآن الفيلم الهام . حسـن . المعلـم البـوذي في المرفأ . ، طرح العالم الأمثل . "وكنت يا نفس تكتفين بالظـل ، أما الآن فسأقودك إلـى الجسد" . ينتظـر المعلـم إقـلاع السـفينة إلـى الجزيـرة . زوربـا يحتضـن "السـانتوري" . يتوقـف عـن العـزف . يصـيح بصـوت أجـش : "أقـوم بشـتى الأعمـال . بالأيـدي بالأقـدام بالعقل، فقد تكون نهايتنا عندما نختار عملاً واحدًا نقوم به" ..

الأمواج المخدرة تشتد، يدعوني السقف المظلم إلى النظر : أنا ضقت بالمشاهدة . جفناي يحاورهما النوم : مدّ يده في القاعة ولمسني فجعلت أنسج في العلم . "زوربا يرى الدنيا بعيني فيل كما لو كانت الرؤية لأول وآخر مرة" هكذا قال المعلم . "أنا لا أؤمن إلا بزوربا لأني أملكه وأعرفه" هكذا قال زوربا ..

(١٥)

أفتح عيني على "زوربا" وهو يغري المعلم بلقاء الأرملة . "سورمولينا" يتتبعها رجال القرية . هاموا بها. مزقوا ثيابها . بصقت على الأرض أمام الرجال اللاهين بالعنزة . "أشكرك" قالتها للمعلم عندما فتح لها مظلة المطر . "أشكرك" بلبلت أفكار المعلم . بَحْلق المعلم في "زوربا" الراقص . أبحلق في "زوربا" الراقص . قال زوربا "مات ابني .. مات ابني . فتغلبت بالرقص على الفجيعة" . قال زوربا : "وقالوا : جن زوربا . جن زوربا" . قال زوربا يكلم المعلم ويكلمني "لو لم أرقص لمت" ، فأمضى المعلم ليلة الفصح عند الأرملة لتنشر في لحظة الهمسة المحمومة، بينما رأيتني أهرب من صديقي الذي غدر . سمعت النصيحة ..

مـا زال الممـر الهـابط بـلا أقدام . لـم يـأت الرجـل . أي رجـل . بينما جارتي الصبية تستحث نظارتها الطبية . خائفة على الأرملة. ربما . "سورمولينا" تتلقى الحصى – صابرة – يوم عيد الفصح . ارجموا العاهرة . ارجموها. القرية كلها خرجت للرجم . ارجموا العاهرة . ارجموها، انتقامًا لشاب أحبها وشاهدها في حضن المعلم فانتحر . أهبّ واقفة . أغادر القاعة . تعرف قدماي الطريق ..

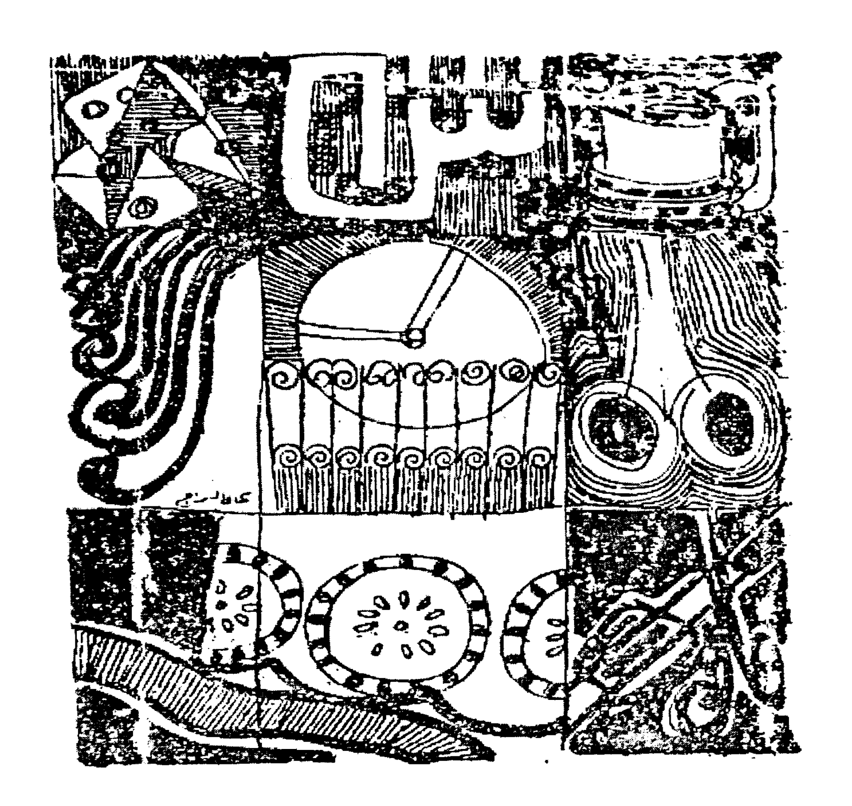
(١٦)

تسلمني الردهة إلى الباب . يفحصونني . تنزلني الدرجات الأربع . لا تكييف . الحر يلفحني وأنا أبحث عن الشاب الذي تردد في معاكستي . أريده الآن . يجردونني . جماهير الحفلة القادمة . "سورمولينا" هام بها كل الرجال . أنا حسناء وأحب أن يتعقبني رجل .. ذهب رجلي الغادر ولن يعود . تنكر . "فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور" . وتقول إنك أردتني فلم تتخلى ؟! . "إن جسمي ليس إلا مرضًا وجريمة وشيخوخة وموتاً" هكذا قال "زوربا" . والشجرة الجرداء عجزت عن حماية المرأة المحاصـــرة بالصخور والعيون . وقال في أذني وهو يحتضنني في مسكنه : "إن الذي بيننا أكبر من الورقة" .

وقال "زوربا" "إن الاتحاد الشرعي ليس له طعم . إنه طعام بدون بهار" . وقتها كان بيننا صوت أبي وكاتبة حواء ..

عيون الحفلة القادمة تطاردني . نسيت "سورمولينا" زمن الحرمان بالمعلم القادم من المدينة . فليتبع الحسناء الآن رجل . وتقول إنك أردتني فلم تتخلى ؟! . فليتبع الحسناء الآن أي رجل . وابتسمت وبكت الأرملة في صدر المعلم القادم من المدينة على مرأى ومسمع من الشاب المتلصص . آه . أود لو أعود إلى البيت الآن كي يتلو أبي في سمعي قرآنه وأوراده ..

أقدامي تسرع . الرجال جميعًا يسرعون لكنهم يعبرون . يتجاوزون . يختفون لا يطرقون بابنا بعد أن عاينوني . لا يعودون. فلماذا لا يعودون ؟! ..



وأنت يا صديقي الذي غدرت : غضبت فلم تعد . هل يمكن يا أبي أن يعيد صوتك الطيب مَن عايننى أو مَن غضب ؟! ..

(١٧)

يلوح لي جزء من السور القديم الدائري . بصري عليه . أفحص الناظرين والمشترين والمحركين للكتب القديمة . ليس بينهم .. أنظر في ساعة معصمي ؛ الرابعة. باق على العودة إلى الشركة ساعة . فلأشاهد الكتب وأقلب حتى الخامسة . لا . لا . في أنفي رائحة القاعة . المعلم شم رائحة "سورموليتا" أحتاج الآن إلى سيجارة . أضحك . لم يسبق لي التدخين . فلتكن الأولى والأخيرة. فلتكن الأولى والأخيرة ..

(١٨)

أغشى ميدان التمثال الرمادي . أتضايق . أزداد ضيقا بتقلب أمعائي . "ساندوتش" الظهر راح مفعوله ؛ نقري يعلو ويعلو . أرى العسكري الرمادي يباشر ويقاوم، بينما التمثال تمثال . السيجارة بفلتر صحيّة .. فلتكن الأولى والأخيرة؛ "نتحرر من الشيء بالشبع منه". زوربا الصغير سرق أباه . سرق الكرز . شبع من الكرز فانتهت متاعبه . وأضحك في نفسي ضحكة

الأرملة أمام المعلم وأنا أتطلع إلى يافطة الشركة . حجرتي مطلة على الميدان وهادئة الآن . استرخاءة السينما لذيذة، حجرتي مزودة بمروحة ولا أحد بالشركة سواه . وأكسر الإشارة الحمراء عابرة الشارع متجاهلة غضب العسكري الرمادي ..

(١٩)

أمشي إلى المصعد . أدخل . مكتوم . وعرقي ينساب بلا رادع. مسامّي هي السبب . تلتصق البلوزة بظهري . المروحة تزيل كل أثر . تجفف . فليسكب أبي الآن في سمعي قرآنه وأوراده . "أبي أبي . أحزان هذا الكوكب" كاذب كاذب ساعي الصعيد . لا أعبأ يا صعيدي بجرأتك، ولا بصدرك العريض الأسود المدبب ..

أخرج من المصعد . عصبية . قبل أن أضغط الجرس انفتح الباب عليه . أفسح لي . الرابعة والربع . قال : رأيتك وأنت قادمة. لا أجيب . أجري إلى حجرتي الساكنة .. وأرمي بالحقيقة وسط حجرتي ثم أفزع إلى النافذة بعد أن شغلت المروحة . أفتح النافذة . أطل على الميدان . أبصق عليه وأنا مغمضة العينين . لا أرى شيئًا . في لحظة العمى رأيتني أمام المرآة في صمت حجرة منزلي. لطمت أذني أمواج صفير عاتية . لطمت صوت أبي

الطيب . برزت "سورموليناً" تلتقي بالمعلم . وأدخل كل أصابعي في أذني لكيلا أسمع دبيب الخائنة ، ولكن عبثاً أحاول . وتقول "أنا أريدك" فلم تخليت ؟ وتقول : "كوني" فأكون . فلم غدرت ؟! ..

كم أتوق يا سيدي إلى الصمت الأزرق !! . لكن الكف الملعونة ترتفع إلى رأسي بالشراسة والقسوة . فأرتد مذعورة إلى الوراء . والمروحة تطيّرني إلى الممر فأطير . ويطير . وأجري في الممر ويجري خلف الساعي . أتعثر فأسقط لينغرس في صدري صدره المدبب . أشم أغلى العطور . "إن جسمي ليس إلا مرضًا وجريمة وشيخوخة وموتًا" . وها هو الفارس التركي يتململ . ينفض عن جسمه وجواده الرماد . صار التمثال أبيض . ينزل الفارس عن ظهر الجواد . أراه يقف بجوار السياج الحديدي. صارت زهور الحديقة بيضاء . فيخلع العسكري سترته الرمادية . صار العسكري أبيض. يلوح له . يستقبله يسلمه الإشارة التي ثبتت على اللون الأخضر . اتفق الاثنان على المبادلة . صعد العسكري إلى قاعدة الفارس وامتطى الجواد . نزل الفارس عن جواده وشغل مكان العسكري ..

نوفمبر ١٩٦٦



أغنيـــة



افتح عينيك :

الأسدان في حراسة مدخل الجسر . أقترب من قاعدة الأسد الأيمن . أجلس ، أسند ظهري إليها وأثني ركبتي . أريح عليها ذراعي . في يدي اليمنى سيجارة مجهولة الصنف . أهدأ . لم تعد تزعجك الآن الأصوات المتضادة. تحررتَ من الاسم والثوب والجلد منذ ألف سنة إلى خمسين . نوح أسلمك الزمام وولى . من كل زوجين اثنين . سجينة في الفلك عناصر الخلق . فنم فوق الطوفان . فعلت وأنا أسأل عن السلامة المضمونة .؟

افتح عينيك :

عرافة مسنة أنبأتك أن المصير حفر قديمًا في جبهة كهف طمسته الأمواج . لم تصدق النبوءة . أعددت العدة . وزودتك يا ولدي بمعارف سرية ، فقابلتَ يا ولدي مسعاي بأن الغرب يا أبي هو موطن المعرفة والسلامة ، لم ترد غيره بديلاً . لكن ما لبثت أن تبددت معالم الغرب المبتسم ، فانصرفتَ متحمسًا يا ولدي عن الأحلام الواعدة : "لا مفر يا أبي من مواجهة واقع أصرح من أن توصد في وجهه العيون والآذان" ، فجاءت العرافة ، أخرجت لسانها العرافة ، أشارت بأن أطلق البخور الهندي ثم أمرتني قائلة: "ألجم لسانك" ، فألجمته . قطعته . وسفحت دموعي على الأقدام المباركة ألف سنة إلا خمسين . وكلما دعاني "كنعان" رحلت . متى عاد "كنعان" عدت . فمتى تعود يا "كنعان" لألغي كل المحاولات ..

افتح عينيك :

فأفتح نصف فتحة . أنظر بنصف يقظة . الزحام يزحف إلى المدخل المحروس . اعفوني . لست أريد جمهورًا ولا أحب المجاملات، المهم أن أعيد "كنعان" . ويصيح بي رجل : انهض .

فأنهض . ويصيح بي آخر : امش ، فأتحرك . ضاربًا أسفلت الجسر . أنظر إلى قدمي. أتبين ضياع فردة حذائي اليسرى . لكني لا أعبأ . أتحسس رأسي العاري . فلا غطاء يدفع عن صلعتي سياط الشمس . لا ظل . لا ظل . وألاحظ سيجارتي المجهولة الصنف لا تتضاءل ، فأهرسها بقدمي ..

افتح عينيك :

أعور يحب أنثى فوق الجسر . يستندان إلى السور ، يضحكان بدون سعادة . أضحك . أعطيهما ظهري . أمضي مبتعدًا عن المدخل . حلقي جاف . هل أستجيب الليلة لملهى "هوليود" ؟ أتحمس للشرب . ينسى سريعًا موجات الأسى .. خاطبني شبح بالملهى وأنا أشرب . حدد المكان والزمان لكنه أخلف الموعد . أنا أتحمس للشرب . لا أمل . لا أشكو . لا تزال في جسدي قوة لا أبخل بها . والأرض لم تعد رحبة . ضاقت . يمكن ارتيادها في ساعة . أنسى نفسي بالخطوات العمياء ..

"الأسود الحداد . أحمرّ وتورم خدا زوجتي ، تساقط لحم الخدين ذات صباح . في لحظة غبية مبهمة لطم الموج الصخر ألف مرة . في لحظة تالية غبية ومبهمة اجتهدت في فهم أشياء

فلم أنجح . سيان أن تكون تسلية أو لا تكون . نوح فعلها . أسلمني الزمام . لعنته حلت بمدينتي المشرقة . هل أنا المسئول عن لسانه عندما شكا؟ . رفضتني المدينة رغم حاجتي إلى نسيان الخبر الخطير . نشدت إلجام قهري في ليلها المرصع بالأنوار الملونة بينما كانت امرأتي تلزم زنزانتها تنتظر عودتي ببقية الجسد .. لكن أمرني صوت مقهور بأن لا أعود؛ امرأتي الحزينة السوداء زهدتني" ..

افتح عينيك :

ضحكات الأعور فوق الجسر تطاردني وتجاريه ضحكات الأنثى . غير سعيدة . أقف بغيظ أبكم . تندفع قبضتان وتكسر الرقبة . أخلص الأنثى المقهورة . لا تنكسر الرقبة . تزداد الضحكات المتحدية ؛ لأني لم أغادر مكاني ، لم أتقدم نحو الأعور خطوة ، ولم أعد ببقية الجسد الذي بعثرته قنابل الغدر .. وامرأتي القابعة في الزنزانة تنتظر عودتي . لكن "هوليود" كان البلسم الشافي الذي أنشد فيه السلوى ..

"كانت القاعة مزينة . وكان دخان أزرق ذو رائحة معطرة ينهمر فوق الرءوس السعيدة . أراحني . كان اللحم الأبيض كثيرًا.

الرجال والنساء هنا لا يفهمون . نظروا إليّ .. صاحوا : غريب . غريب . تكلم التراب والعرق والجفاف . تركوني شفقة أو إهمالاً . صرخت . تقيأت دمًا على قفا سيدة بيضاء .. صرخت . صفعتني. فانفجرت رأسي بسباب لا ينقطع . ثم ضحكت حتى توقف قلبي . فتعالت صيحات الاحتجاج، وشتائم تستنكر وجود القادم المتطفل .

- ماذا نفعل ؟
- نشنقه . ليكون عبرة لغيره .
- ضايقنا .
- أفزعنا .
- تسبب في اختلاس السهرة .

لقد أثرتُ اللحم الأبيض . هل يحتشم ؟ . زوجتي تركتها في الزنزانة محتشمة متشحة بالسواد والحداد . أوقفتُ الأصابع والنظرات المتحرقة، فتجمد الصياح الضاحك على الوجوه الكرنفالية . شواهد تدين ولا تبرىء. وصرخت بصوت ذي صدى.

- مات .. م ـــا ـــا ـــا ـــت . فتسابقت صيحاتهم:
- اطردوه .

فقلت أستفسر :

- هل يمكن أن أجده هنا ..

فتسابقت صيحاتهم :

- ارحل . ارحل . ارحل .

فقلت من بين دموعي :

- ابحث عنه . أحتاج إلى مساعدتكم .

فتقدم رجلان بعضلات قوية . فخفت . انكمشت . وهمست لهما:

- امرأتي حزينة تتوعدني لو رجعت بدون كنعان . لكن الصخر كان صخرًا . كان أصمَ . وهمست لهما :

- أرجو المساعدة . فتكلما بشفاه أربع زنجية .

- هنا لا نرحب بالغرباء .

فتشجعتُ قائلاً :

- هل أخطأتُ .

فكررا :

- هنا لا نرحب بالغرباء .

فصرختُ في الرجال والنساء والعضلات المتقدمة . صرخت بصوت ذي صدى .

- مات . م ـــ ا ـــ ا ـــ ا ـــ اـــ ا ـــ ا ـــ ا ت .

فتقدما . انحنيا عليّ؛ وأنا الخائف المنكمش برأسين كبيرتين . التقطاني دمية. نفذا فيّ حكم الإعدام شنقاني بحبل يتدلى من فرع شجرة خارج هوليود" ومضينا إلى الداخل ..

افتح عينيك :

طوق بشرى . رءوس على رقاب مطاطية تهتز . تنهال منها نظرات لا تريح . ماذا حدث ؟ أنا أتألم وأختنق . ومت مرة أخرى. ينفخون في فمي بقصد إعادة ضربات قلبي المهاجرة . يريدون إنقاذ المجني عليه . لا تزال السفينة المثقلة بالخلق تسعى إلى المرسى. مجهول . لا شيء محدد يدل على أن الأمور لم تتحول إلى الضد . يقابلونك بملامح رواد الملهى الليلي . الجاني مبهور . يقطع شعر رأسه غيظًا . تفضحه عيناه. رفعوني من أمام السيارة التي صدمتني. وضعوني فوق الرصيف، يا ناس . يا ناس : هو المسئول . وهو المسطول . رمى بنفسه أمام عجلاتي .

ربما . ولا اهتم بما أسمع من همس جانبي متضارب . أنهض . أرى أشلائي الملوثة بدمائي الدافئة . وأقف على جوفي المبعثر وأغني :

"توزعت الألوان المتضادة خلال رتابة نظراتي ونحن نحاول أن نصدق الخبر أو نكذبه . لما جاء المندوب وقال : "إن ابنكم ضرب المثل في البطولة والفداء"، صدقتْ زوجتي ولم تصرخ . خلعت الألوان وارتدت الحداد . تربعتْ فوق بركة من الدماء، ومع ذلك طالبتني بوجه أصفر بأن أشد الرحال بحثا عن البطل لأعيده . ولما أقول لها إن كنعان لم يعصمه الجبل – تقول بعينين باكيتين : ارحل ارحل وعد به . ارحل بعيون مبيضة كعيون يعقوب . فهل نجا ؟ ارحل ارحل بحزن يعقوب . فأتمادى في الرحيل لقاء أن تبتسم . أنا وزوجتي نتبادل الضجر حتى يرجع الغائب الذي بالقطع لن يعود" ..

افتح عينيك :

أنا في منتصف الجسر . يأمرني شبح في نهايته : "أسرع" فأسرع. أركب الرصيف هذه المرة . أخاف الموت . الغرق . عبرت اللحظة العاقلة، أغشى الفلك التائه وسط الأمواج . أسمع

بغير فهم الطنين . أرغب في الجلوس على حافة السور أحاكي أنثى الأعور. لا . لا . أمشي . أجدّف فوق مشاة الجسر بينما قرص الشمس مُحْكم فوق صلعتي . قال في أذني تحت قرص الشمس "سوف أعود" . تركني ومضى قليلاً . ثم رجع. قبلني فاحتضنته بملابسه العسكرية . كان متفائلاً .

"ذلك الصباح لم يكن صباحًا عندما أتانا النبأ العظيم . كنت قبلها بقليل أعاني من وهم وقلق . كنت أرى الحداد واقع لا محالة . هجوم الأعداء في حرب غير متكافئة . لما تأكدتُ من الخبر بحضور المندوب قبضتُ على الهواء صائحًا دون أن يخرج مني صوت . وكان نسيج عنكبوت يزحف نحوي بجسارة وأنا أودع المندوب العسكري . نظرت في النسيج الذي أخفى ملابس المندوب العسكري . وجعلت أتساءل عن السلامة المضمونة . وقال شبح في أقصى الشارع المظلم "لقد نظر من ملكوته فإذا الأرض قد فسدت" وقال : "اصنع فلكًا وارحل بهم بزمن لا تعرف نهايته" . ولما دنا النسيج أكثر وأكثر رأيت خلق السفينة يأسفون عندما عادت الحمامة المخلصة ؛ أخفقت الحمامة في الوصول إلى الجودى" ..

افتح عينيك :

ها هو أخيرًا مخرج الجسر . في حراسته أيضًا أسدان. لفظ القار المغلي بخيوط الشمس أخر خطواتي . وداعًا .. وأبتسمْ لانكسار الطوق البشري . غابت الرقاب المطاطية المتحلقة . وعلى أن أسعى خلفك يا ولدي، كما سعوا بحثًا عن الجودى . ولكن اللقاء يا زوجتي العزيزة السوداء عزيز عزيز . أشم الآن البخور الهندي . أطلقها يا ولدي في رواحك وغدوك :

"كنت أرتفع مختالاً إلى قمة البرج أتربع فوقها وأنا أسمعهم يتحدثون عنه . ولكنه فاجأني ذات يوم بسعادة غامرة . كان الأعداء قد اقتربوا كثيرًا من شاطىء القناة. تمركزوا بعتادهم وسواترهم واستفزازاتهم على شاطئ القناة . قال : إني سعيد باستدعاء الجيش لي . ولما قلت له : وأين أحلامك يا ولدي – قال ضاحكًا : الواقع على شاطئ القناة أهم وأصرح وأبلغ . هناك يا أبي أمارس بحق حريتي . ودعته مقهورًا . "عرايا خرجنا عرايا نعود" . ولما قلت له : هل أنت حقًا سعيد ؟ - أجاب بكل الحماس : "لا ندخل العالم بشيء ، فلا نخرج منه بشيء"..

افتح عينيك :

فـأفتح علـى المـبهم المـبهم المـبهم . الأعـور يطـارد الجميلـة . يقتربـان مـن المخـرج . يتشـاجران بعـد أن طـارحهـا فـي المـدخل الغرام . يد تقبض على أنفاسي . كان همسه لها طنينًا يدميني . أود أن أغنـي . فـدعوني أغنـي . أحـن لعرافتـي لأريـق تحـت قـدميها قرباني . قالت: "المصير واحد وواضح ومحدد" آه . المبهم المـبهم المبهم. دعوني أغني ! .

- ابعد عني .

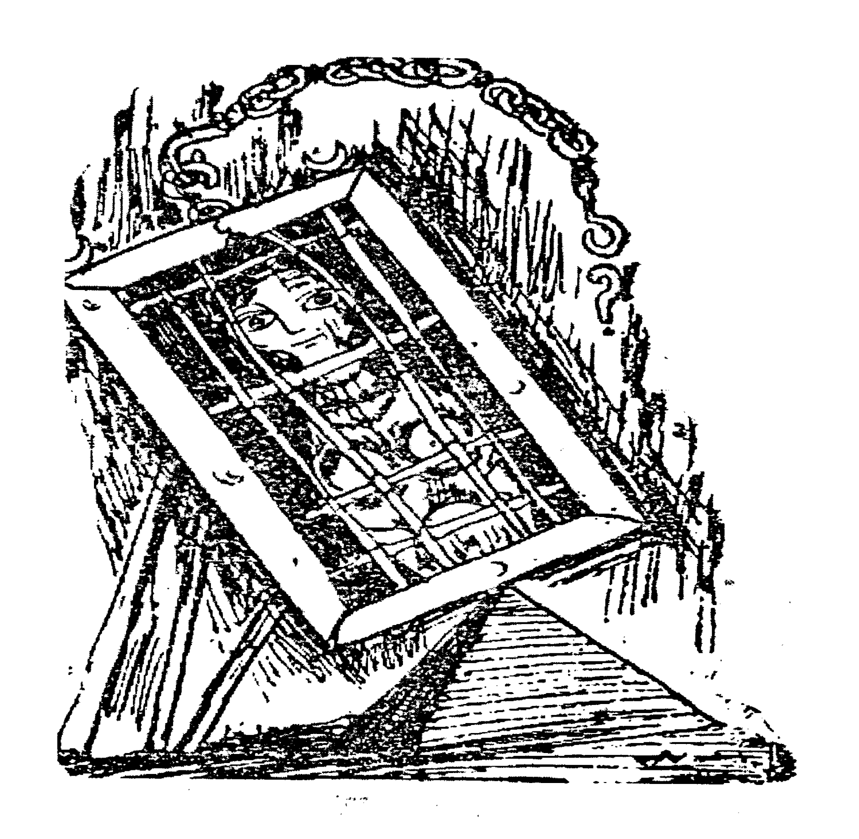
فهوى بكفه الثقيلة على وجهها الجميل وهو يصرخ .

- ساقطة .

آه يجلسون في قاع السفينة ينتظرون البشارة . أسمع صفعة ثانية ذات صـدى . الأعـور والجميلـة يتشـاجران . يتفاهمـان بالأيـدي والأقدام . يتهاويان في النهر . المبهم المبهم المبهم . دعوني أغني :

"زوجتي سألتني مكذبة الخبر الذي هز حتى ستائرنا البرتقالية . هل حقا حدث ؟ لم أجب وأسرعت بالهرب . ضربني الطوفان الشرس . هرعت إلى السفينة أنضم إلى الفارين . جعلت أرقب

معهم ظهور شجرة الجودى . دخلت لا مفر أمام الزمن المتلكئ في قوقعة الغفلة والمبهم. صاح بي في ركن من القوقعة شبح "هيهات أن يعود . هيهات . في قاع جب تحرسه قوى غير منظورة. استقر. هيهات أن يعود " .



ذات مساء قال لي من بين ملابسه العسكرية "مجد العالم ليس في مركز الضوء . أنت لا تعرف معنى أن يحتويك ليل ومقبرة لا تكف عن دعوتك. تصارع في زحمة الليل وابلاً جهنميًا يصل إلى كل حي . ويكون علينا رغم ذلك تمزيق الوقت بالأغاني. آه . هيهات أن يعود . فدعوني أغني" .

افتح عينيك :

عاد الشجار . صعدا من الماء . الأعور ما زال يطارد الجميلة . تصيح به نافرة ابعد عني . لا أريدك بعد اليوم.

- محال . محال .
- أفضل لك أن تبتعد عن طريقي .
- أنت تميتينني .
- لا تحاول .
- لا بد .

أكرهه . والعرق الممزوج بماء النهر يعلوها يثير في القلب كوامن الغضب ، وأنظر فأرى شطري العاصمة يستعدان لاستقبال

الليل . أقفز في لمحة فأقف بين الاثنين. هدأت الجميلة وابتسمت . يتوعدني الأعور وينذر بعقاب مؤكد . صاح بي:

" لا شأن لك . لا شأن لك . فابعد أفضل لك"

يتضاعف غضبي . ولكني أسأل : هل أغامر ؟! . أنا يقظ الآن ولا أحتاج إلى ما ينبهني ولا إلى ما ينسيني. لقد كنت أقبض على هواء لم يستسلم أبدًا لأصابعي، بينما فرح الفارون في السفينة بالمجد المقبل . ويقول صوت من خلف الليل الزاحف : "وأقيمه في بيتي وملكوتي إلى الأبد" . وأتت من جهة الصوت البشارة . عادت الحمامة بورقة من شجر الجودي . نجحت . الأرض . الأرض . الأرض . ويقول الصوت الآتي من خلف الليل "ويكون كرسيه ثابتًا إلى الأبد" . ويصيح خلق السفينة فرحين بالبشارة : "الأرض . الأرض . الأرض" . وأجدني أصيح معهم قائلاً : النهاية وليدة البداية . فدعوني أغني معكم . دعوني أغني . وأقول لنفسي وأنا استعد للمواجهة. لابد من وقف الأعور المنذر . وأكور قبضتي وأنا أغني : الأرض . الأرض . الأرض . ثم أتقدم نحو الخطر بلا مبالاة .

نوفمبر ١٩٦٩ .

المفقـــود



.. الخطوات المجهولة بالخارج مرة أخرى وأنا أتابع زوجتي تتهيأ للخروج إلى حفل الجمعية الخيري . أنصت إلى وقع الأقدام : بطيئة مترددة . مقبلة مدبرة على أسفلت الشارع السفلى وفوق الدرجات الثلاثين . أهرب إلى حائط أصم تتشبث به رأس زنجي تعلو صورة لرسام عالمي لا أهتم بتذكر اسمه ..

ها هي أخيرًا – في المرآة – تتعطر وتبتسم . تبتسم في صمت يزيد من قهري . لا حديث بيننا ولا همس ولا حتى شجار . تطالعني فقط بابتسامة باهتة مرسومة ومقصودة قاصدة تعويضي عن رؤية المعنى الحقيقي في عينيها الصافيتين ..

وعارضتني لوحة الحائط بإلحاح وهي تسعى نحو الفراش بتردد كتردد خطوات الشارع السفلي والدرجات الثلاثين . تجتذبني اللوحة الفنية والعطر يسبقها إليّ .. تتكئ الآن على حافة السرير كي تطبع على خدي قبلة الخروج ..

فكرت أن أحول وجهي – هكذا أفعل كل مرة – لكن لم أفعل . لا كلام . شيء ما يتصدع . ينهار . ضربات قلبي سريعة ونشطة . وأحبها فأسلم خدي لشفتيها الرقيقتين دون أن تتلاقى عيوننا ولو خطفًا ..

ابتسمت وهي تتباعد . الظهر . عيناي تتجولان على فستانها الأسود المحبوك . لو أرافقها هذا المساء ! . أود أن أكون هناك . وقبل أن تصل إلى الباب وقفت والتفتت إليّ بغير عيون . قالت :

- لا تنس موعد الدواء . الثامنة والنصف .

فقلت بسرعة :

- لن أنسى موعد الدواء . الثامنة والنصف .

فأضافت وكأنها لم تسمعني :

- وعمومًا لن أتأخر .

مضت بجسد ملفوف شاب . لا أراها . احتجبت . رائحة ما تسبح في الحجرة غير عطرها المتميز . لو أرافقها . أحب أن أكون هناك . أنيقة ومثيرة لا تماثلها واحدة من النساء . وأبتسم وأنا ألمح على "الكومودينو" مسركية لبيكيت . انتهيت من قراءتها منذ أيام ..

(٢)

شدت باب الشقة بغير عنف . خرجت .. أصوات القدمين . تهبط .. صوت محرك . السيارة قائدة ماهرة ماهرة .. السيارة تبتعد . تقلص الآن عطرها الصارخ والليل لم يشرّف بعد . ما زال الجو الرمادي يكسو – في الخارج- حوائط العمارات المقابلة . لا أستريح لتسلله إلى الحجرة، فأمد يدي إلى الأباجورة في هروب . أسكن بالضوء الذي بدد الظلال .. بدد الرماد ..

أغمض عيني للحظة لأفتحهما على ساقي الممدتين بلا حراك.. أتضايق فأقفل النور، عاد الرماد إلى الحجرة، فتنداح في صدري آهة مهتاجة راحت بجسارة تتمد بأذني تجاوبها أصوات رسمية حادة : - "العلاج . العلاج المنظم كفيل بتغيير الأمر وتحقيق الأمان . الأمل مهم . والانتظار واجب" .

توجيهات قالولها وولوا . فماذا بعدئذ ؟ أليس لكل شيء نهاية؟ أليس لكل شيء نهاية يا سيدي الطبيب ؟ لكن الطب قال كلمته وسكت . فتساءلت : - أين الأمل الموعود أين ؟

فلم يجبني أحد إلا بكلمات. وهذه زوجتي الشابة الجميلة عضو "جمعية الأمل الصحي" لا تتحمس كثيرًا للبقاء إلى جواري بعد أن أراقت كل دموع العينين لما قالوا "إن علينا أن نمضي في طريق غير مبتسم" انشطرتُ . انشطرت وانتهى الأمر ..

"كانت زوارق الإنقاذ على مقربة منا نحن المتسابقين . كان الموج هادئًا .. وكنت أحتل المركز الأول قبيل حدوث اللحظة الحرجة ؛ لقد أحكم الفزع سطوته وأنا وسط الموج الحافل . هاجمني الألم دون استئذان بأسفل الظهر متصاعدًا إلى مؤخرة العنق . "آه . النجدة" . وكانت زوجتي في زورق قريب تلوح لي وتمطرني بقبلات عبر الهواء . "آه آه . النجدة النجدة . الألم الألم . النجدة النجدة" . وحلّ بعيني ظلام مخيف وأنا محاط بدوامة من نظرات المعاطف البيضاء : لقد انتهى كل شيء تقريبًا عندما نفضوا أيديهم جميعًا ورسموا على الشفاة إجابة

واحدة محددة : لقد أصيب السباح الماهر . شل . انشطرت شطرين . آه . وصحت بالوجوه المتحلقة المحدقة : هل من أمل؟ وكانت الحجرة مكتظة بالرجال .. تنقلت عيناي عليهم واحدًا واحدًا .. فتضاعف همي ووددت لو تختفي زوجتي الجميلة فلا تظهر أمام رجل . أي رجل" ..

(٣)

.. الظلام .. خيالات الطوابق العليا بعمارتنا على واجهة العمارة المقابلة . أرى الخيالات بوضوح . ضحكات خفيفة وناعمة تضجرني . رأس لأنثى وأخرى لذكر تلتقيان ثم تبتعدان ثم تلتقيان ثم ..

آه .. الأباجورة هي الأمل . النور . "في انتظار جودو" سحبت المسرحية . قلبت صفحات قرأتها من قبل . أمد يدي إلى الأباجورة: الظلام ثانيًا . هذا أفضل . فأتتبع خيالي الرأسين أمامي على الجدار . الرجل في الطابق الأعلى فوقي مباشرة مجنون بامرأته وهي نافرة .. امرأة المجنون شكت لزوجتي إصراره على الغزل الصريح حتى في النوافذ . زوجتي حكت لي . اختنق . يغريني النوم .. أتثاءب ..

"تمددتْ معي وسط هلال مئذنة تطل على شاطئ نهر. وكانوا تحت يتحركون بأشكال متفاوتة متضادة .. وبينما كان الماء رماديًا يغازل بصري .. نهضت زوجتي تعدل من ملابسها، وطلبت أن أصطحبها إلى حفل الجمعية الخيري .. كان وقتها ظهري يؤلمني . لما شكوت لها عجزي فجأة عن الحركة، أصرت؛ لأني لست عاجزًا . هل شفيت ؟ . ياه . أخيرًا المعجزة. أنا أنزل من وسط الهلال الفضي . أنا هبطت بسلام . أنا مشيت دون مساعدة . دون أن أتأبط ذراعي امرأتي العاريتين . فستانها أزرق مكشوف الصدر . وكان أولاد يصفعون الماء بأقدامهم الصغيرة . وجدتني أخطو بلا صعوبة . أخطو بين الدولاب والمرآة وباب الغرفة وباب الشقة . وجدتني أهبط الدرجات الثلاثين . هبطتُ جميع الدرجات. ياه وهتفت في الشارع وأنا أقود السيارة بجنون : لا أصدق أني نجوت . وكانت زوجتي سعيدة . وهتفتُ : لن تكوني وحدك بعد الآن يا عزيزتي الجميلة. أملك كل شيء . سوف أسبح مرة أخرى . لن تذهبي إلى مكان وحدك يا عزيزتي . وبدت جمعية الأمل الصحي فوق جبل كحصن أسطوري . نزلنا من السيارة .. وجاءت في نفس اللحظة سيارة حمراء كبيرة نزل منها رجل أنيق وطويل . حيى

زوجتي وحدها وسبقنا ، ورغم دهشتي لتعدد المشاهد . فكرتُ في الرجل بحزن : تحيته لزوجتي صفعة حادة هوت على أذني اليسرى، وفكرت في الابتسامة التي بدت على شفتي زوجتي، وفكرت في الرجوع . لكن تلقفتني رئيسة الجمعية المسنة المتصابية. رحبت بي وأغرقتني في أحاديث متشعبة .. وفجأة اكتشفت اختفاء زوجتي الجميلة ولم أر الرجل الطويل الأنيق . عندئذ عبثت بي يد خفية وتّرت أنفاسي . ورأيت فم المرأة المتصابية يطحنني فم المرأة المتصابية بأسنانه الصناعية . ومع ذلك وجدتني أتقدم من باب موصد . فتحته . آه .. سقطت ودرت في دوامة من نظرات أصحاب المعاطف البيضاء، بينما التفت زوارق الإنقاذ حولي راسمة في الماء حلقات متعرجة"..

(٤)

.. آه جرس الباب . هل نمت ؟ من يكون الزائر الليلي؟ يستخدم أيضًا يديه . من يكون ؟ . الأقدام المجهولة ؟! ، وفتحت النور . التاسعة . تأخرت نصف ساعة . موعدها الثامنة والنصف . لم تأخرت ؟! ..

أتتبع صورة الحائط كأني أراها للمرة الأولى : الخطوط ونسب الألوان : تبدو كحشرة غريبة تدنو من رقبة إنسان لا يكلف نفسه مشقة الدفاع . فأسأل عن الصورة . أين ومتى كان الاختيار ؟ . أراها هكذا للمرة الأولى وكفى ..

أعود إلى التفكير في أصحاب الخطوات الرتيبة غير المرئية . من يكون ؟ من يكونون ؟ . فاشتعل في رأسي حلم الجمعية الحاد . استسلمت للحلم الرهيب لوقت طويل .. ثم نظرت في الساعة : تأخرتْ زوجتي ! . باهرة زوجتي . لكني رأيتهم ينظرون في صدر فستانها الأزرق المحبوك : ينظرون بحرية . تأخرتْ . آه . لو يتعطل تفكيري إلى الأبد . لو أنام . لو أموت . أعشق نهاية أشرف على تفاصيلها؛ لأني أرفض المصير المفاجئ . فاجأني الألم الحاد المعجز وسط الموج وأنا في كامل لياقتي البدنية . تأخرت . وأنا دائم الترقب . ويجب على "جودو" أن يكف عن ممارسة لعبة الانتظار المميت . السبت موعده . بل الأحد . بل الاثنين . أيام الأسبوع السبعة . آه . في أي يوم يأتي "جودو"، وفي أي يوم أتى؟ . آه . المعجزة وحدها . أريدها . المعجزة التي تدرأ عني هذا العذاب أو أتخلى فأصنع بيدي النهاية التي يتوقعون أن تحدث ..



أظلم الحجرة . لأن غشاوة ماء حجبت الرؤية . أغمض عيني.. موجة وموجة وموجة من الصفير تلطم أذني وأنا مغمض العينين..

المفتاح يدور في الباب . أنصت إلى الصوت .. هل عادت ؟ . نعم . العطر المميز يسبقها إليّ . بلا ثياب دخلت وتمشت بالحجرة. اقتربت من الفراش ثم استلقت صامتة إلى جواري يتحداني جسدها الأسمر . لم أتحرك. استمع بإخلاص إلى حفيف نفسها : تتنفس بعمق ورتابة، ضمت ساقيها . لا حركة : نامت ..

حولت إليها رأسي : كان الوجه بريئًا وأملس . كان مكسوًا بارتياح لم ألحظه منذ حادث السباق . نبع العرق من كل جسمي . غسلني. وكانت بطني منتفخة تدفعني بقسوة إلى الحمام .. هممت بطلب المعونة . لكن عدلت لما طالعني زنجي الحائط بابتسامة فهمتها بدت على شفتيه الغليظتين . دعوة إلى المحاورة ! وأسقط الزنجي عينيه على اللوحة العالمية : كانت الحشرة ما تزال تدنو بتصميم من الرقبة الغافلة . فنهضت إليه وخنقته وصحت فيه : يا زنجي إما أن تنطق أو تسكت . ضجت الحجرة بصيحتي . توقعت أن النائمة ستهب فزعة لكن فتحت عينيها وقالت بتراخ وتكسر .

- نم يا .. عزيزي .

فصرخت رافضًا :

- لا .

تسللت أصابعي إليها .. تحسستها . ضلت أصابعي في تضاريس جسدها الممتلئ بغير رغبة . فاحت منها بقايا عطر مجهول اختلط بعطرها المميز . أنفي مجرب، وأصابعي خبيرة تؤكد وجود بصمات غريبة على الجسد . وقالت بتراخ وتكسر :

- مالك يا حبيبي . لم لا تنام ؟

جذبت رقبتها إليّ بعنف . حكت عيونها نفورا معذبا . حدثتني نفسي بأن أبصق . ثم صرخت فيها :

- أردت قتلي الليلة . فتساءلت مستنكرة متعجبة .

- أنا ؟! .

- اختفيت مع الرجل الطويل الأنيق .

- أنا .. ؟!

- ورأيتك في أحضانه ..

- مجنون مجنون ..

- ولابد من كسر رقبتك .

وضغطت عنقها وهي مستسلمة . ورطن الزنجي بعبارات غير مفهومة تحثني على ارتكاب الجريمة ، لكن زوجتي جعلت تقاومني بقوة ومهارة ثم انتبهت فجأة بصوت "فرملة" السيارة .. جاءت زوجتي، فلم أتمكن من الإجهاز عليها ..

(٥)

سكت صوت محرك سيارة وقفت . يد فتحت الباب وأغلقته . يد ناعمة . زوجتي . هل عادت أخيرًا ؟ أقدام كثيرة تقطع المسافة إلى باب العمارة . يصعدون السلم ويصعدون كل يوم ألف مرة ومرة . هل عادت زوجتي؟ وأنظر في الساعة : الحادية عشرة والربع . أسمع . أسمع فأحسب الزمن الذي تستغرقه زوجتي من موقف السيارة بجوار باب العمارة حتى باب الشقة حتى الفراش. أسمع . همس وضحك وكلام غير مبين يواكب الأقدام المقبلة الصاعدة . أسمع ..

مضت دقيقتان . ثلاث . أربع . خمس . ست . سبع .. لم يفتح باب الشقة بعد .. لم ؟ السلم موطن الحركات غير المنظورة . من

يشهد ؟! من يدين ؟! عشر دقائق . لم ؟ . يوم . شهر . عام . دهر طويل . بطني منتفخة تستصرخني . آه . الفراش يتبلل بإرادتي . يا زنجي : انطق أو اسكت . ولا ترحمني أسنان العجوز الصناعية بكلام في سمعي لا أفهمه . لقد كانت في الحفل الخيري ترفع حاجبيها كثيرًا كقوادة محترفة .. لم لا تدخل زوجتي الآن حتى أستريح ؟ .

ودار المفتاح في الباب . أنصت لنقر الحذاء المدبب . الكعب عال ، والفستان ضيق محشورة فيه حشرًا ، وها هو النور يملأ الصالة .. النقر المدبب يقبل ناحيتي . يدق بقسوة رأسي ؛ الخطوات المجهولة ما زالت تغزو وحدتي وعجزي .

غمر النور الحجرة . زوجتي عادت متهللة . ضاحكة. لم تكن هكذا منذ ساعات . تحييني وهي تدندن بلحن غريب لم أسمعه من قبل . تقطعه . تعتذر . تتحدث وتتحدث عن برنامج الليلة الحافل .. ساقاي ساقاي . هل أفقد الأمل إلى الأبد ؟! ..

الأسنان تنطبق وتنفرج وتنطبق . يتجمع البصاق كله الآن على طرف لساني . كنت أمتلك القوة والإرادة . وها هم الآن جميعًا يتحركون . كنت السباح الماهر العنيد . الآن أنتظر "المفقود" حتى

يأتي . قال : السبت . بل الأحد . بل الاثنين .. بل . بل . وفي الصباح . في الظهر . في العصر . في المساء . في الليل . وقال اليوم. بل غدًا بل بعد غد .. وقال : لقد جاء . حدث ذلك بالأمس دون أن تراه . وأنا أقول : لم يعد يجدي الكلام . لم يعد يجدي سوى رصد أشباح الظلام، ومحرك السيارة وتلك الأصوات المجهولة، والأقدام الغامضة ..

يناير ١٩٧٠

الصبـاح الأخيـــر



(١)

.. الفجر يغزونا معًا .. من الراديو تنبعث موسيقى إذاعة مجهولة .. أتغطى بدفئها الأمومي . زوجتي . تقول بعينيها الحزينتين : يشتد خوفي كلما ازدادت حركة الجنين . فأجذبها بحذر إلى أكثر . فتبكي . لكني لا أنطق. أخرس . وأذناي قد أصيبتا بالصمم ..

يعلو قليلاً صوت بكائها فأهمّ بالكلام . لكن ثمة من يأمر بالسكوت . فأسكت . لا وقت للكلام : العقربان داخل الحصار الذهبي لا يرحماني . المنبه الفسفوري . الوقت يسرع .

وسوف يتدلى الجسد الحي فجأة عاريًا في الظلام وفي الشمس والمطر في اهتزازة دائرية سريعة تطوق العنق ..

- كلمني .

- ......

- كلمني . ماذا تحب من الأسماء ؟

أنظر في بروز البطن . أشعر بالحركة . أغمض عيني: ما الحب ؟ . أنا أحب . أنا لا أكره "سيداتي آنساتي سادتي" . أنا مذيع سابق . البرنامج الثاني من القاهرة . "إليكم رائعة هوميروس . لنشهد الصراع الحافل في قصة اليوم" . كان هذا آخر برنامج أقدمه . سلمت نفسي لمنطقة التجنيد بورقة وصلتني . حاسمة لا تقبل التردد، فتسلمت ملابس صفراء بلون الرمال .

- كلمني . أنت لا تجيب ..

تتخلى أصابعي عن شعرها الأسود الغزير : المنبه ذو السوار الذهبي يدق بعنف، أرى "أندرو ماك" تحمل الطفل وتودع زوجها "هيكتور" . قلبي يدق مع دق المنبه . أدير

مفتاح الراديو إلى أعلى لترتفع الضجة ويزداد الصخب . أحن إلى النوم . لم أنم منذ ولادتي . أنا تعب للغاية ..

تسلل صوتها منخفضًا من تحت ناقوس منكفئ .

- مبسوط ؟

- ....

- أنا أعد الأيام يومًا يومًا . أستعجل عودتك كلما رحلت .

أنظر في عينيها الدامعتين بدون كلام . المنبه فسفوري. العقرب الصغير على الرقم الخامس . الكبير على الثاني عشر. الخامسة الآن . بعد قليل يطلع الصبح الأول وعليك أن تستعد للرحيل . المسافات طويلة . ويجب أن تكون هناك في الموعد المحدد .

- أنت لا تتكلم . أنا خائفة ..

أنا مخنوق . تخنقني الدموع . ثمة من يأمر بالنهوض . "انهض" فأنهض . "هيكتور" نهض . "ارتد ملابسك" . تسربل بدروعك . هيكتور فعل . ثم أرحل نحو الخطر المتحفز تحت

أسوار طروادة . أنا أطيع ؛ هكذا فعل هيكتور العظيم، لمبارزة أخيل ..

- أنا ماشي .

- تعال .

قالت بضراعة، فأعود لتمتلئ بها ذراعاي . أضمها مستجيبًا لدعوتها وضراعتها .. طروادة . طروادة . أهل طروادة جميعًا يعقدون آمالهم على فتاها الشجاع . تقول بهمس :

- سترحل .

أقول وأنا أنصت لصوت قذيفة غادرة عمياء أو مبصرة في سمعي .

- في قطار السادسة .. كالعادة .

- ياه ..

سكت . قطعت لساني

- ....

- لم أشاهد معك النهار منذ وقت طويل .

دقات المنبه عنيفة خطيرة كطبول حروب الزنج .. ولساني مقطوع فلا أرد . أقوم . أرتدي بدلتي الصفراء العسكرية الرملية. ارتدى هيكتور دروعه . خفاش الظلام يتقدم بغير عيون . أهمس في أذنيها بلا همس . حتى الهمس لا يخرج . تتوسط وحدها الفراش بنظرات زائغة. لكني أتمكن من الهمس.

- أنا راجع .

همسي أسمع وقعه . يطن في أذني مثل قذيفة مندفعة غادرة، ثم عدت أقطع لساني مرة أخرى ..

أتقهقر . تقفز إلى ذراعي . بروز البطن بيننا . الوليد القادم المنتظر . ألمسه : أنا أبوه . هي أمه . تسقط الأذرع جميعًا في يأس . أبتعد . أخرج ضريرًا، أخرس، أصم ليضمني – في الشارع الصامت – الصباح الأول.

(٢)

.. لا تنظر إلى الخلف . لا تقف . أسمع مشاهد الوداع لا تستهويني . خطواتي ثقيلة . حذائي العسكري ثقيل . أفكر في موسيقى الإذاعة المجهولة بينما كانت تبكي بين ذراعي . أفكر في البرنامج الأخير وفي الورقة الصغيرة التي جعلتني بحسم

ارتدي الملابس الصفراء الرملية . "قف والتفت" . لا . أحسن . أنت عظيم وبطل..

في شرفة الطابق الرابع وقفت "أندروماك" . أعرف أعرف .. والبرودة قارسة . أعرف أعرف . تلوح "أندروماك" للبطل المخلص . أعرف أعرف والبرودة قارسة . قلبي ليس حجرًا ولكني لا أحب مشاهد الوداع ..

الأوتوبيس المفصلي الطويل يحملني الآن إلى رمسيس، يهرع إلى ميدان فرعون .. وصل . المحطة ذات الطراز الإسلامي الأزرق تبدو رائعة في الصباح الأول . هل أنسى ؟ . صفارة الكومساري ففرمل السائق من وسط الزنزانة الزجاجية. هل أنسى ؟

يتخفف الأوتوبيس من الحمولة الثقيلة . يندفع الركاب المسافرون تجاه باب المحطة .

"اندفع الغزاة إلى أسوار المدينة المناضلة" .. هل أنسى ؟ . تمثال رمسيس عملاق عظيم يذكر بمجد حافل سابق . هل تحدث المعجزة ويتحرك التمثال العظيم ليدرأ عن المدينة جحافل الخطر ..

(٣)

.. يتجاوزونني دون حماس رغم أنهم يثبون بفزع إلى ساحة المحطة . "الغزاة المندفعون يقتربون من أسوار المدينة المناضلة" . صوتي عليل . أقدامهم ثقيلة لكنهم أسرع مني . مسافرون إلى مواقعهم مثلي . يعبرون الباب المفضض بخطوات واحدة، وبملابس رملية واحدة، وبرائحة مميزة واحدة. يعبرون بسرعة ليستقلوا القطار الأول المسافر نحو الشرق. لكني أتباطأ .. أفكر في العودة . فما زالت "أندروماك" في الشرفة تحمل الجنين مودعة ومنتظرة ..

صفارة قطار السادسة تعلن عن قرب التحرك . لا . لن أركب . فتبرد أطرافي وتسخن . قطار السادسة لا . بل نعم . بل لا . محلي أسير . أتلكأ عن عمد . صورة "أندروماك" بعيني "البرنامج الثاني من القاهرة" . أندروماك لا تمل الانتظار . زوجتي لا تمل . الطفل قادم قادم . لكن رحل أبوه ولم يعد . أنت يا ولدي بلا أب . داسته تحت الأسوار سنابك الجياد الوحشية . إعلان أسود عن بطل الأبطال الذي أنهى مراسم الوداع لمنازلة "أخيل" على أبواب طروادة ..

أفكر في الدنو من الرصيف الخامس . إن "بريام" الحزين يجلس فوق الرصيف الخامس . في عينيه فزع السنوات التسع . يجب أن تنتهي الحرب لكن بانتصار المدينة المناضلة . يجب أن تراق من أجل النصر دماء الأبطال على عتبات المدينة المقدسة ، وأن يموت الأحبة حتى "هيكتور" العظيم . فزع "سكمندريوس" ابنه من خوذة الحرب وأمه تدفعه إليه . ضحك الأبوان في مرارة ...

الصفير الثاني . إن الباقي دقيقة . يجري خلف العربة الأخيرة الأسرع المتحمس . "أخيل" يتوعد وينذر . "اللعنة على باريس" ، اللعنة على "هيلين" .. وتقول أندروماك "إن آلافا من الهواجس السوداء تضغط على قلبي، تحدثه بالعقبى الوخيمة" . لا وقت للخيار . يخرج "هيكتور" إلى "أخيل" مخلفا وراءه كآبة المدينة . قلق المدينة . وتصيح "أندروماك" : "هيكتور ارجع لي . أنا لا أستغني عنك بأب أو أم أو أخ أو بمملكة يزين مفرقي تاجها المشرق" ..

آه . لا وقت للتنفس . حول الرقبة عجلات القطار المسافر . و "التحم البطلان في ضراوة" . تمنع القضبان المتوازية من وقوع الحادث المروع . أسرع واركب . لا. كن صريحًا . لا . "هيكتور"

مات لتنغرز في حلقي مرارة بريام . أنا وامرأتي الجميلة صنعنا طفلاً لن يراني. لكنني عائد عائد . "سيداتي آنساتي سادتي لنتابع المشاهد التالية" . هل تسمعون ؟ ..

القطار يتحرك الآن ببطء وتثاقل . يزيد من الحركة والسرعة . أين العداء الأخير ليعدو خلفه ؟ . لا أحد . لا أتقدم . أتراجع . أستدير . أدق البلاط الأملس . الدرجات الأربع . أنزل . أنصت لوقع أقدامي . أنصت لموسيقى الفجر المجهولة . أعبر السور المفضض إلى الميدان . هل يعرفون ؟ . الغضب الحاد في ملامح الوجوه العابرة بي . يأتي أصحابها للسفر . القطار التالي : السابعة. لكن لن أسافر . لكن "الهارب" وصف صارخ يطاردك أينما حللت. آه . لقد تخلفت بإرادتي عن قطار السادسة .. أكان هيكتور عالمًا بالمصير ؟ :

"حلت علينا لحظة صمت أنستنا صياح رفيقنا المنهار. وكان صباح هادئ خلت سماؤه من الطائرات المغيرة ، وكانت الشمس دافئة . قلنا : لنبدأ يومًا آخر جديدًا . لكن ما لبث أن وترنا هياج صديقنا المنهار . عاد إلى صياحه مرة أخرى : اسمعوا .. اسمعوني . إلى متى نقف هكذا مكتوفي الأيدي؟ إلى متى؟ سأغزو

وحدي هذا المجهول. ثم سكت فجأة ونظر فزعًا إلى الأفق الشرقي. نظرنا نحو الأفق الشرقي معه عبرنا الفتاة بعيوننا . وكنا قد اعتدنا توقع الخطر من خلف الساتر العملاق . ظهرت الطائرات المعادية . انشقت السماء وغطست طائرة أسكتت رفيقنا وآخرين . ثم جمع بعضنا الأجزاء والأشلاء . جعلوني أنظر، فتقيأت دمًا .. ثم لم أعد أرى شيئًا غير الظلام والصمت ولون الموت. ثم أفقت وتكلمت ونمت . ثم صحوت لحظة ومت . أستمع في موتي لصراع آلهة الإلياذة على شاطئ بحر طروادة الزاخر بالسفن الغازية . ومت في موتي وأنا أسأل عن رفيقنا الذي أراد أن يغزو وحده هذا المجهول المخيف" .

(٤)

.. الشلالات السبع تتساقط في المربع البرتقالي تحت قدمي التمثال العظيم . تغريني البحيرة بالهبوط حتى القاع الأملس . "اخلع ملابسك واحصل على النهاية الجميلة" . فأسأل هذا الذي لا يكف عن إصدار الأوامر "هل الموت يحدث حقا ؟" ..

أتسلق القاعدة والقدمين والساق والصدر حتى الرأس. أجلس فوق التاج الفرعوني أراقب الحركة من تحتي يغلفها ضوء

الصباح المائل إلى الزرقة . مريح . لكن لم ترحني نظرات الجنود في القطار الراحل . كانوا يعلمون . أنا مذنب مذنب مذنب . هارب. كانوا يعلمون. اتشح الأمان بسواد لا مفر منه . كانوا يعلمون أني مجرد هارب خائف من خطر الغزاة المتربصين .. آه . لن أقبل هذه الصفة التي ستصمني إلى الأبد . لكنني سئمت الدور الرتيب . وأكره الأمر "محلك سر" ..

قطار السادسة ولى لكن قطار السابعة يوشك أن يحفزني بقسوة مماثلة . لا . لن أسافر . أنا هنا . هنا . باق . لن أسافر . "البرنامج الثاني من القاهرة" . اسمع : هل ما زالت الجماهير تذكر الصوت الذي غاب ؟ ، فانزل وكفى ثرثرة . حاضر . لكني أريد النوم أو الموت.

أنا تعبت . أنظر من فوق إلى القادمين يقصدون السفر. الجنود بخطواتهم الثقيلة وبملابسهم الرملية . ها هم يسرعون نحو الباب إلى قطار السابعة الذي ينتظر . لكني أرى "أندروماك" جالسة فوق الأسوار الفضية . أنا قادم . وهذا "أخيل" يمثل بجثة هيكتور. البطل الصريع. أبخرة غضب المسافرين تتصاعد إليّ فوق قمة التاج الفرعوني، "البطل الشجاع مات بينما تجلس أنت فوق

الميدان" . لكني أفكر في العودة إلى "أندروماك" . يسبقني إليها النهار . نهار النهار . وأقول بصوت مفعم بالفزع لا يسمعه أحد .

هيا نشاهد سويًا النهار . بياض النهار . شمس النهار وظهره وعصره وغروبه . ويرد عليّ صوتي لا . "البطل الشجاع مات بينما تجلس تثرثر فوق الميدان" . انزل : "بريام المسكين حزين يقطع وحده المسافة إلى معسكر الغزاة بعيدًا عن الأسوار ليعود بجثمان البطل" ..

أتدحرج . أتهاوى لترتطم رأسي بالقاعدة الصلبة . تسيل عيناي وهي تواجه الساعة المرشوقة في ضلع الواجهة الزرقاء . يقترب الزمن من السابعة . آه . ومرت بي الملامح الواحدة والخطوات الواحدة والرائحة الواحدة . يجري الجنود . يدوسون .. أنهض وأجري خلف الأقدام الواحدة . الدرجات الأربع . المدخل . رصيف "بريام الحزين" . أقف . أستند إلى ضلع "الاستعلامات" البارد . عيناي على القطار المتأهب أحاول الخلاص من ألسنة بابل الغامضة . لا أفهم من البرج الآن غير الصياح الذي سكت . ولا أرى سوى الأجزاء والأشلاء التي كانت ذات يوم لرفيقنا الذي ضج وتمرد وأصابته مباشرة الطائرة الغاطسة ..

القطـار يبـدأ فـي السـير البطـيء . أنـا لا أرى . "إلـيكم سـيداتي آنساتي سادتي هذا المشهد الأخير" . وهكذا ذهب "بريـام" الحزين إلى "أخيل" الشجاع فرقّ لشيخوخته ، وأسمع أندروماك : إن آلافًا مـن الهـواجس السـوداء تضـغط قلبـي وتحدثـه بـالعقبى الوخيمـة . القطـار يتحـرك أكثـر . يزيـد مـن سـرعته. أنـا أرى . أنـدروماك .. أندروماك . أتشبث أكثر بالحائط البارد . أسمع : ولد . بنت . ولد . سوف يحل الطفل الذي لم أختر له إلى الآن اسمًا بعد شهور ثلاثة. القطار يسرع أكثر. لقد اتسعت عينا زوجتي وسط الفراش وأنا خارج وحدي إلى الجو الرمادي صباح اليوم . وها هي المسافة الآن تتسع بين بدايـة الرصيف وآخر عربـة . لكنـي أتخلص فجأة من الضلع البارد وأقفز .. وأعود لأمسك بمقبض العربة الأخيرة .

مارس ١٩٧٠



الجـــرح



(١)

.. هذه المرة لا تفزع . عيونهم عليك ولا تراك . بريق النجوم والنسور معجزة تهرأت بسنابك القهر . قبل سطوع اللحظة الحرجة بالومض المخيف احتوتك راحة رائعة . غنيت ألمًا . أفهمتك اللحظة المضيئة أن النيزك الشارد نتيجة تغير لفراغ لا يؤمن بنهاية للمدى ..

الآن هم الثلاثة في بؤرة الكلمة ليسودوا أحشاءك هدفًا سهلاً للرماة . بالكلمة يتكلمون . بالموت . بالموت يعرف المترقبون خارجًا أن الخطأ مرفوض وأن علينا لو كررنا المحاولة

أن نطلى بالسواد مقاتلنا بأيدينا" . الذي يهوى إلى الهاوية السحيقة لا يصعد" ..

- ألن تتكلم ؟

أنتبه على صوت الأوسط . صارخ غاضب ورافض لصمتك المثير . تنظر إليه وإليهما . وإليهم : يرمقونك بعيون الدهشة والعجب . الأوسط ذو النسرين والنجمتين. هو القائد . الاثنان على يمينه ويساره بأربعة نسور وأربع نجوم . القائد يعود إلى الصياح :

- أنت مصمم على السكوت . أنت .... أنت ..

أنا لا أسمع . لأني أحشو بالقطن أذني . ولأن عيونكم عيون صقور جارحة فالكلام هراء وخداع . ولا فائدة منه. والشرود هو الرد المناسب، ولا يهم أن تصدروا أي حكم عليّ . فأنا معترف بالجناية .

- شارد .... يا ....

بكل الغضب يرمي بقذائف . بركان فيزوف يتفجر بالحمم ويثير الذعر، فهبط من تحت قدمي جزء من الأرض . اضطرب . لكني لم أنطق ..

- ....

- اقرأ عليه الجناية .

أمر القائد ذو النسرين والنجمتين الرجل الواقف خلفي كالجلاد . "مساعد أول" الوحدة . فأدى التحية للمرة الألف . كدم الأرض بكعبه الأيسر . أعرف . تكلم . انفتح "المسجل" . صوته كريه . خوار بقرى يتلو الواقعة . يعلمني بالتهمة . رذاذه يتطاير يلتصق بقفاي ..

أتضايق . أهرب . أعرف قبل أن يقول . أسعى بنظراتي إلى سقف "الملجأ" العسكري الذي يضمنا .. في الأرض السابعة . مقبرة تقي الأحياء من ضربات الموت المفاجئة . نحن نبعد عن سطح الأرض مئات الأميال . أسمع المساعد بصوته البقري يقول :

- الشاهد : يومية الغياب ويومية الحضور .

أعرف . لا مفر . أنت محاصر بمراسيم الحل السري. قناع الموت معد . وعليك أن تبني للخلاص فلكًا يطوى وصاياهم العشر. من الذي يخرجني إلى سطح المقبرة ؟ الحاجز المزعوم يعجزني عن تتبع النيزك الشارد ..

الأوسط يتابع الخوار في صمت هادئ . أين الغضب؟. أنظر نحوه يتوسط الضابطين . تحمل أكتافهما أربعة نسور وأربع نجمات مطرزة . أرى في وجوه الستة ملامح طيبة يعرفونني جيدًا . كم جمعتنا ليال عديدة نتحدث ونتناقش بعد أن تسكن الحياة عدا حركة حراس الليل المدججين بالأسلحة . لكن الأوسط رغم الهدوء البادي ينطق بهدوء أكثر . يصدر قراره القاتل واصفًا التهمة الموجهة إليّ.

- هروب من الميدان وقت الحرب .

فرددت الكلمات بصوت لم يسمعه سواي كلمة كلمة : هروب .. من .. الميدان .. وقت .. الحرب . وكررت الكلمات . لكني أهتز . أحسست بملاكم ماهر يسدد لقلبي أعتى الضربات . فأحتمي . أحتمي بحبال الحلبة مدافعًا متراجعًا لكن دون جدوى .. اهتززت جسدًا مكدودًا بفرامل القطار المثقل الداخل إلى محطة العاصمة ..

"بدوت جنديًا نظيفًا إلى حد ما بمساعدة زملائي بالموقع . تمنوا لي وقتًا طيبًا سعيدًا مع زوجتي الجميلة وابنتي الصغيرة ذات السنوات الأربع . ودعني القائد وبعض ضباط الموقع بابتسامة واسعة . منحني القائد "إجازة خاصة" مكافأة على نجاحي في رصد

وإصابة الهدف المغير على الموقع . طائرة رهيبة . تحطمت تمامًا بالقرب من الموقع . وقال لي القائد : أنت بطل يعتز بك "السلاح" . شكرته ..

وركبت قطار المساء الذي بدأ الحركة في الرابعة ووصل في السابعة أو الثامنة أو التاسعة . أو . أو . المهم وصل . كان بطيئًا للغاية . خطر بذهني خلال سيره البطيء أن أغادره وأقطع المسافة الباقية بقدمي : ابنتي الصغيرة، وزوجتي الجميلة ضوء متوهج وسط المفرقعات والشظايا وتحت الدخان الخانق ..

دست بنشاط أعقاب الثلاثين سيجارة التي دخنتها، ووثبت من القطار، إلى باب المحطة، إلى الشارع، إلى السلم، إلى الباب .. خفق قلبي خفقة عنيفة تعجبت لها قبل أن أدير المفتاح في كالون الباب . دخلت. توترت ضربات قلبي ويدي تلامس برودة مقابض أبواب الحجرات الثلاث . الشقة خالية ! . آلمتني ضربات قلبي وأنا أطرق باب الشقة المجاورة الذي فتحته جارتنا العروس الحسناء وهي تبتسم ابتسامة غامضة . كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وأنا أتسلم منها ابنتي ذات السنوات الأربع . كانت نائمة .

وضعتها في السرير وتمددت إلى جوارها أشعل السيجارة الواحدة والثلاثين بغير أن أشد منها نفسًا .

وفكرت وأنا أسحب دخان السيجارة عندما سألتُ جارتنا العروس الحسناء عن المكان الذي ذهبت إليه زوجتي – ارتجف على شفتيها الجواب ولم تنظر في عيني . ثم قالت هاربة : "خرجت منذ الصباح" ..

تنبهتُ على حركة المفتاح وضوء الصالة ودقات الكعب . كان الليل يدخل في الواحدة حين نهضت إليها بجميع أدوات الاستفهام .. لم تسرع إلى حضني كما كانت تفعل ؛ تصلبت تمامًا في منتصف الحجرة أمام السرير ، فتقدمت أنا واحتضنتها .. لون عينيها دائمًا في ذهني ، ورثته ابنتنا ذات السنوات الأربع . صدقت سبب الخروج وسبب التأخير . وكانت ابنتنا نائمة .. تمددنا .. قالت باكية بغير دموع : أنا لا أنام الليل ولا يهنأ لي في النهار بال .

نمنا . لم أهتم بابتسامة جارتي الغامضة . لكني ما لبثت أن صحوت فزعًا . عاد البطل المظفر .. وفكرت : رأيتني أقف في وسط الذهن حاملاً ابنتي عائدًا بها وحدي إلى الشقة الخالية ، ثم نمت دون نوم لأراني أرصد الهدف المغير وأصيبه، ثم انفتحت

علـيّ أفـواه تبـارك وتهنـئ بالصـوت فـي الصـورة فـي الصـدى فـي الدمار في دخان السيجارة تضاءلت حتى الفلتر الأبيض" ..

(٢)

- العقوبة : الرمي بالرصاص .

- ....

- هل أنت بحاجة إلى إيضاح ؟

الأوسط القائد . حدد العقوبة . الإعدام بالرصاص جزاء الهارب من الميدان .

- تريد أن تقول شيئًا ؟

لا أريد ولا أحب . وليس لي أي طلب . لكن في سري. لست غاضبًا ولست محتجًا . فبالحق نطقت بالحق. مرحبًا بالجزاء الحاسم . الآن يا سيدي لست أشك في صلاحيتك لقيادة العالم . الآن رقبتي ملككم . وقلبي تحتكم . أنت يا سيدي أحق بالوسام المنزوع من الشراسة. أسيرًا أكون لكم . أنت حكيم الحكماء ونابليون وإسكندر المقدوني . لكن من فضلك : لا تقترب من خرافة الوصايا فأنا أعرف . المهم أنك بالحق نطقت . فمرحبًا..

النيزك الشارد ليس يمضي إلى غير هدف . لم ؟ .. والأمر الذي لا يقنعني هو لماذا تحاولون إعفائي من التهمة ؟ . حقا إني أسقطت الطائرة لكن ربما كان ذلك صدفة .. ربما كان غيري سيفعل ..

المغامرة الأولى والثانية والثالثة . هروب . هروب . هروب .. ثلاث مرات هروب ومع ذلك تعتقدون أنني ما زلت بطلاً . رغم أني لست أكثر من ذرة رمل . بل لست شيئًا مذكورًا على الإطلاق. فاسحقوا الذرة . وأنا مستعد . ألبس قناع اللحظة المناسبة . قناع الموت الجزاء . هل يسمعون ؟! ..

- ولكني سأمنحك آخر فرصة .

- لا ..

أخيرًا أرد . أحرر لساني . أنطق بالغضب . أعترض. فتتحرك جفون العيون الصقرية . توتر جبهاتهم متشابه . "لا . لا . وألف" لا أريد دون نطق ومن غير أن أرى . تغطي عيني طبقة ماء كثيفة لا تسيل ..

(٣)

لا أتمكن من الصعود إلى سطح الملجأ . القاعة الرسمية لأحسب المسافة الهائلة بين السطح والقاع . أفكر في رتابة صوت قطار الرابعة الخامسة السادسة .. أفكر في ليل الوحدة، وفي قول جارتي الحسناء ذات الابتسامة الغامضة "خرجت .. منذ .. الصباح" . لماذا تبتسم دائمًا جارتي الحسناء .. أنت يا جارة عرفت وتعرفين



كل الوقائع . أنت عيني التي ترى وأذني التي تسمع . فلماذا لا تصرحين يا جارتي الحسناء ؟ ولماذا يتردد الجزاء بطيئاً على الذهن كلمة بعد كلمة بعد كلمة بعد كلمة بعد كلمة : "هروب . من . الميدان . وقت . الحرب" . ومع ذلك فأنا مستعد . وجهي مستعد لقناع اللحظة السوداء ..

(٤)

أتيقظ بصدى يأمرني بالحركة، صاعدا من جوف سرداب تحت الأرض السابعة . الرماة ينتظرون . أمر القائد بالانصراف . نفذ الأمر المساعد الأول . الهمام ذو الخوار البقري . ضرب الأرض بكعبه الأيسر وصاح بي آمرًا وحاسمًا :

- مارش ..

فتصدع بالأمر الحاد قدماي لتصعد بي من القاع .. درجة . درجة . درجة . درجة .. فلا أرى النجوم ولا النسور . أمشي أمام "المساعد الأول" مخترقًا دروب الموقع بإيقاع أراده ويتحكم فيه . أنصرف عنه لأتأمل عددًا من الجنود يتابعون المشهد في حزن وفضول من مواقعهم الدفاعية . أبتسم لهم ابتسامة أغالب بها

إحساسي الحاد بقهر لم أجربه من قبل . أقول بعيني : اطمئنوا . وصفقوا للبطل . فهم لم يتكلموا بالموت . بعمر آدم حكموا ..

(٥)

ها هو الفضول يتحول عنك . تتجه الأنظار إلى الشرق الخطير تأتي منه طائرتان نحو المواقع المتأهبة، الهدفان مرصودان . صاح صوت بي وبالمواقع : غارة . غارة . غارة . أنا نتوء بارز وهدف سهل . لا أنصت للأصوات المحذرة .. لكن جندي يندفع نحوي ويسحبني إلى الموقع الآمن . فلماذا ؟ أنا أرحب بالموت . وسيان عندي أن يكون بانتظاري مَن لا ينام الليل والنهار أو لا يكون . لكن هل كانت جارتي الحسناء صادقة عندما عرّضت عيناها وملامحها بأن زوجتي كثيرًا ما تغيب عن المنزل في غيابي ؟ . إن "الخيانة" صفة فضفاضة بحاجة إلى "حكمة" سليمان كي أثبتها أو أنفيها . ولكن أين هذه الحكمة التي بالقطع لن تأتيك، ولم يتملكها من قبل أحد ؟. وما دمت لن تحصل عليها فالهروب هو الطريقة الواضحة لاختبار معنى نظرات جارتي الحسناء ذات الملامح القاتلة ..

(٦)

أجدني أشعر بالخوف وأنا أفكر في إجراء مغامرة الذهاب . أهبط إلى قاع "حفرة برميلية" بعد أن شكرت الجندي الذي جذبني إلى موقعه الحصين .. أتابع صمتاً صاخبًا بعد أن طاردت المدافع الطائرتين اللتين أسرعتا بالهرب لكن حتمًا ستأتي موجة أخرى . أعرف ذلك وأشعر به . حزنت لأنني لست في موقعي، لكن ذهني كان قد بدأ رحلة الهروب إلى العاصمة ..

(٧)

أنتظر . ستأتي الطائرات في الموجة الثاني قصفًا مركزًا ، ومعها غراب قابيل . يأمرني صوت بلزوم القاع لأنجو فأفعل وأحمي رأسي ليمكنني الرحيل أو الهروب لأعرف ما يجري ببيتي البعيد القريب : قالت هناك وهنا: أنت المجد، أنت ابتسامة الحياة . وقالت هناك وهنا : أنتظرك بقلب لا يسأم الليل والنهار .. وقالوا هنا وهناك : أنت رائع وعظيم وبطل . وقالت هناك وهنا : أنت معي يا حبيبي طول الوقت . وقالوا هنا وهناك : أنت البركة أنت .. أنت .. أنا في كل مكان ذرة رمل طيرتها رياح ليل الواحدة .

"احتجت العاصمة لوطأة الحر وأنا أسلك الشوارع بحثاً عن زوجتي . ابنتي معها هذه المرة . رمال النهار الحارقة في الصحراء لا تزورها نقطة ظل . لم أسأل جارتي الحسناء عنهما ذلك المساء . نادتني هي وأنا أغلق الباب خلفي فلم أرد . طرقت الباب . ولم أفتح . زاد الطرق ولم أفتح . صممّتْ : كسرت الباب أو اخترقته . لا أدري . وجدتها في الصالة تحدثني عن الرائحة التي فاحت في الشارع والحي والمدينة . أغمضت عيني وسددت أذني في لحظة طويلة انهالت فيها ضربات الملاكم الماهر، بتركيز ومثابرة منه، وبتشتت وتثاقل مني. حتى حبال الحلبة لم أشأ الاحتماء بها . لكني وأنا مغمض العينين مددت يدي وعبثت بصدرها على مرأى ومسمع من زوجها الحي . ثم ركلتها ومضيت مطعوناً بنظرات جريئة في الشارع لا ترحمني . نادت جارتي من جميع النوافذ فلم أجب . أكره الكلام . وعند عودتي في منتصف الليل لم تكن زوجتي قد عادت . ودخلت جارتي دون أن تطرق الباب .. اخترقته. اعتذرت بعينين جريئتين وبابتسامة غامضة . أثارتني فصفعتها . لم تغضب .. كررت الاعتذار بنفس الجرأة والغموض . فصفعتها .. ثم صالحتها لما غاب منها معنى العينين والغموض المثير . ولكني وأنا في ذروة التهيؤ أن غادرت جريًا

مسكني . ثم وجدتني أتعثر وأنا أهبط السلم . ثم رأيتني أسقط ميتاً وحدي في ظلام الثانية" على صوت جارتي الحسناء يندلع من جميع النوافذ ..

(٨)

أرتكز في حفرة الفرد "البرميلية" واضعًا يدي فوق رأسي . قادمون لا شك بالموجة الثانية . أنزل يدي وأثبت عيني في رقعة دائرية بدت من السماء غير صافية، مطابقة لفوهة الحفرة ..

أسمع هدير القنابل الساقطة وطلقات المدافع الصاعدة . عادوا . أسمع القصف القريب . أشعر بخوف لم يراودني من قبل . شرخ الضجيج الهائل الصلابة المزعومة . هل تسمع ؟ . عليك الآن أن تصعد لمواجهة قبائل قابيل . وأنظر أكثر . النيزك الشارد ليس يمضي إلى غير غاية . إنه داخل المدى المرسوم وليس خارجه ..

القصف يشتد ويتواصل وأنت بعيد عن موقعك قابع في حفرتك . فهل ستنجو من العيون التي ترمقك في الذهاب والغدو ؟ . الإدانة على أطراف الألسنة . فأنت مذنب مذنب رغم الهدير ومشاهد الدمار . مذنب مذنب رغم انتهاء الغارة واتجاه الطائرات المغيرة نحو الشرق ..

أخرج من الحفرة . وأجلس على الحافة تحت السحب الدخانية . أصيح بكل الصوت : أنا مذنب مذنب مذنب . لكن صوتي لم يسمعه أحد . يضيع ويتلاشى بضجة قطار الليل يسلمني إلى مسكني الذي ضربه الحذر والغموض ..

أضحك عندما لم أجد أحدًا يسمعني . أضحك وأبكي بسعادة وسذاجة وجهل ابنتي ذات السنوات الأربع التي أراها ضائعة في ليالي المدينة الحافلة بالأنوار والسمر والطرب ..

أسقط في الحفرة بإرادتي في لحظة استماعي إلى ثناء زوجتي الجميلة على بطولتي الفريدة . قالت هناك وهنا : أنت عظيم وأنت ابتسامة الحياة . أنت البطل ، فهيا لتشارك وتدفع الخطر . لكني أتشبث بالقاع . أفكر في المشاهد والكلام . أصعد بعيني إلى الرقعة الدائرية المطابقة لفوهة الحفرة .. أسمعهم هنا وهناك يغالون في الثناء وأراهم يقدمون الهدايا ويذبحون القرابين . فأنهض وأتسلق الجدار الدائري . عيناي مثبتتان على الحافة الدائرية وأنا أقرر المغامرة الرابعة .

إبريل ١٩٧١

أدب البعد الجديد

دراسة نقدية
للدكتور عبد الحكيم حسان (*)

(*) هذه الدراسة النقدية قدم بها الدكتور عبد الحكيم حسان . الطبعة الأولى لهذه المجموعة التي صدرت عام ١٩٧١ .

(١)

يعتبر ظهور "تيار الوعي" Stream of consciousness أهم ظاهرة تميز بها تطور الفن القصصي خلال القرن العشرين، فبواسطته استطاع قارئ هذا الفن أن يجوس خلال وعي عدد من الشخصيات في عمل أدبي لا تستغرق قراءته غير ساعات، أو دقائق في بعض الأحيان، وهو ما لا يستطيع تحقيقه في حياته الواقعية التي هو فيها حبيس وعي واحد هو وعيه الخاص .

بهذا أضاف "تيار الوعي" إلى الفن القصصي – رواية كان أو قصة قصيرة – بعدًا جديدًا لم يكن له من قبل، وجعل من قراءته إضافة جديدة كل الجدة إلى تجربة القارئ .

غير أن هذا التطور فرض التزامات جديدة على كاتب الفن القصصي وقارئه على السواء، فقد وجد الكاتب نفسه وجهًا لوجه أمام عالم لم يسبر له غور من قبل، هو عالم الوعي الذي تطلبت وتسجيله فنيًا قدرات خاصة من المؤلف، وتكنيكًا جديدًا في العرض، واستخدامًا غير عادي للغة . إن أهم خاصية من خصائص هذا العالم الذي يموج بمختلف المشاعر والنزعات والأحاسيس والأفكار والذكريات والأوهام هي عدم وجود علاقات

تربط بين بعض عناصره والبعض الآخر، واشتماله على مستويات عديدة من الوضوح . وقد اقتضى العرض الواقعي لمثل هذا العالم في عمل أدبي – ألا يقنع القارئ بموقف التقبل التقليدي الذي اعتاد أن يتخذه في قراءة القصص من قبل، بل أن يكون له موقف يتسم بالإيجابية ويقوم على أساس اقتراح علاقات تحل محل العلاقات المفقودة بين عناصر الوعي .

من هنا كانت صعوبة مثل هذا اللون من القصص، ومن هنا أيضًا كانت الآراء المختلفة التي أبديت بصدده والتي تبلغ حد التضارب .

لا غرابة إذن إذا تردد كتاب هذا اللون من الفن القصصي – وأكثرهم من الشبان – في نشر ما يكتبون، ذلك أنهم رغم إخلاصهم لفنهم وإجهادهم أنفسهم في تجويده . وشعورهم بقيمة ما يكتبون – يشفقون من مواجهة الجمهور بلون من القصص لم تتكون له بعد قاعدة عريضة من القراء .

كان هذا – فيما يبدو لي – هو السبب في إحجام حسن البنداري عن نشر شيء من القصص القصيرة طوال السنين الماضية رغم أنها جميعًا علامات لا تخطئ على موهبة بلغت مرحلة النضج

والاكتمال، وأنها لا تقل في ذلك عن القصص الخمس التي تتكون منها هذه المجموعة.

لقد أحسست حين أردت تقديم هذه المجموعة لحسن البنداري أن القصة القصيرة التي تتناول "تيار الوعي" لا تواجهها غرابة موضوعها وصعوبة تتبعه بالنسبة لكثير من القراء فحسب، بل تواجهها كذلك مشكلة تواجه القصة القصيرة بصفة عامة . وقد لا يكون وجودها موضوع اعتراف عام ولكنها موجودة على كل حال . وهي مشكلة عدم وضوح الفروق الفنية بين الرواية والقصة القصيرة مما كان سببًا في شيء من الاختلاف في كتابة القصة القصيرة وفي نقدها وتقييمها على السواء . ولعل السبب يرجع في ذلك – جزئيًا على الأقل – إلى أن كثيرًا من كتاب القصة القصيرة كانوا ولا يزالون من كتاب الرواية مما كان أساسًا لوجود انطباع لدى البعض بأن القصة القصيرة ليست إلا مرحلة من مراحل تطور الرواية دعت إليها سرعة الحياة الحديثة، وضيق وقت القارئ عن قراءة الأعمال الأدبية المطولة . وهو انطباع يحتاج بكل تأكيد إلى التصحيح : فالقصة القصيرة جنس أدبي قائم بذاته وله من الخصائص ما يميزه عن كل جنس أدبي آخر بما في ذلك الرواية . فلقد نشأت القصة القصيرة بعد أن اكتمل نمو الرواية، وبعد أن

قطعت في نموها فترة خصيبة تزيد على قرن . ومنذ ظهور القصة القصيرة ظل هذان الجنسان الأدبيان يتعايشان في استقلال ويغتني كل منهما بخصائص جديدة في تطوره دون أن يحجب أي منهما ضوء الآخر؛ لأن كلا منهما كان يسبح في فلك غير فلك الآخر .

إن الرواية تعرض الحياة على اتساعها وتعقدها وتنوعها، وتقيم بين القارئ وبين شخصياتها علاقة متطورة تتيح له أن يتعرف على هذه الشخصيات في مختلف ظروف حياتها وأحوالها، بل وفي مختلف مراحل أعمارها أحيانا . وبهذا تكون معرفة القارئ ليست معرفة بالشخصية فقط ، بل وبخلفيتها أيضًا .

أما القصة القصيرة فإن حجمها وطريقتها في العرض وهدفها، كل ذلك لا يتيح لها شيئًا من ذلك، فالقارئ لا يلتقي بالشخصية في القصة القصيرة إلا على امتداد لحظات محدودة مما يحجب عنه لا خلفية الشخصية وعلاقتها وظروفها فقط، بل وأكثر خصائصها أيضًا، فيما عدا تلك الخاصة أو الخصائص القليلة التي يهتم بها الكاتب اهتمامًا خاصًا لاتصالها المباشر بموضوعه، والقصة القصيرة لا تعرض الحياة على اتساعها وتعقدها وتنوعها – كما تفعل الرواية – بل جانبًا منها فقط تركز عليه ضوءًا قويًا مباشرًا

تاركة في الظل ما عداه من جوانب قد لا تقل عنه أهمية في ذاتها ولكنها لا تتصل اتصالاً مباشرًا بموضوع القصة .

ومن هنا يتبين أن العلاقة بين الرواية والقصة القصيرة ليست شبيهة بالعلاقة القائمة بين الصورة وبين مصغر هذه الصورة، ولكنها أشبه ما تكون بتلك العلاقة القائمة بين المعرفة العامة وبين المعرفة المتخصصة . وهذا النوع من العلاقة يجعل القصة القصيرة تختلف عن الرواية لا من حيث الحجم فقط بل ومن حيث الهدف والخطة والبناء وطريقة العرض أيضًا، ويعني هذا أن جوهر القصة القصيرة ليس هو اقتصارها على حادثة أو انحصارها في لحظة وإنما تركيزها على جانب من جوانب الحياة ممثلاً ذلك الجانب في شخصية مثلاً أو تجربة أو منظر بسيط ذي إيحاء بصرف النظر عن أن يعرض ذلك من خلال حادثة واحدة أو سلسلة من الأحداث أو أن يستغرق عرضه زمنًا طويلاً أو قصيرًا . فجوهر القصة القصيرة هو التركيز وليس القصر إلا سمة من سمات التركيز . أما إذا كان القصر مظهرًا للاختصار أو الحذف؛ فإنه لا يعدو في هذه الحالة أن يكون عيبًا مخلاً بالقصة .

إننا نستطيع أن ندرك أية خاصة أخرى من خصائص القصة القصيرة، وأن نفهمها ونقدرها من خلال تلك السمة الجوهرية وهي التركيز، نستطيع أن نفهم مثلاً تلك الخاصة التي ألمحت إليها منذ سطور قليلة، وهي خاصة : تناسب الموضوع والحجم، ذلك التناسب الذي يشعر القارئ بأن الموضوع قد وضع في القالب المناسب بحيث لم يعد هناك سبيل إلى الحذف منه أو الإضافة إليه، وينبغي ألا يعترض هنا بأن حجم القصة القصيرة لا يترك بطبيعته مجالاً للإضافة، فالكاتب يستطيع من خلال الحادثة الواحدة أو اللحظة المفردة أو الجانب الواحد من جوانب الشخصية أن ينفذ إلى عالم أرحب زمانًا ومكانًا وأغنى بالأحداث والشخصيات، ولا غضاضة في ذلك ما دام هناك ذلك التناسب المشار إليه آنفًا بين الحجم والموضوع .

ومن خلال التركيز نستطيع كذلك أن نفهم خاصة الوحدة في القصة القصيرة، وحدة الدافع ووحدة الهدف، ووحدة العمل، ووحدة الأثر، فلا بد لكاتب القصة القصيرة من أن تكون لديه فكرة واحدة يهدف إلى عرضها بطريقة مباشرة لينتهي بها إلى نتيجتها المنطقية. وبذلك يتحقق للقصة القصيرة تلك الوحدة التي هي محك

نجاحها، وهي وحدة الأثر . بمعنى أن يخرج القارئ من القصة بانطباع واحد واضح ومركز .

وعلى الرغم من هذا التمايز الواضح بين القصة القصيرة والرواية فإنهما كثيرًا ما تشتركان في مراحل تطورية واحدة، واتجاهات فنية تظهر في كلتيهما : ذلك أنهما — أيًا كان تمايزهما — تنضويان تحت لون أدبي واحد هو الفن القصصي .

ومن الاتجاهات الفنية التي ظهرت في القصة القصيرة والرواية معًا اتجاه "تيار الوعي" وهو اتجاه فني نشأ في العقد الثاني من القرن العشرين — عصر ظهور تيار الوعي — عرف بازدحامه بمجموعة من المذاهب الأدبية أتاح لها تحلل المذهب الأدبي الأم — الرومانتيكية — أن تتتابع خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة . وقد كان من بين هذه المذاهب : الواقعية والطبيعية والرمزية . وجميعها ترددت أصداؤها في تيار الوعي، فلقد نشأ رواد هذا النوع من القصص في ا تجاه الاستبطان الذاتي الذي ظهر في أواخر القرن التاسع عشر والذي هو ثمرة من ثمار الرومانتيكية . غير أن البطل هنا يختلف عن البطل الرومانتيكي الحساس المترفع بنفسه فوق

مجتمعه، فهو إنسان عادي نراه على حقيقته لا كما يريد لنا هو أن نراه.

وتيار الوعي في حقيقته نوع من الواقعية، فهو تصوير لواقع بكل ما في كلمة واقع من تحديد ودقة . كل ما في الأمر أنه واقع داخلي يتكون من مشاعر وأحاسيس وآراء وأفكار وتطلعات ورغبات وآمال وآلام ومواقف من الناس والأشياء، وغير ذلك مما يعتمل في الوعي الإنساني ولا سبيل لإنسان إلى إنكاره .

وهذه الواقعية على أي حال ليست مقطوعة الصلة بالواقع الخارجي؛ لأن ذلك الذي يعتمل في النفس الإنسانية ليس إلا ردود أفعال لما يجرى في العالم الخارجي .

ومن ثم يمكن القول بأن واقعية تيار الوعي أشمل وأدق من الواقعية التقليدية . أشمل؛ لأنها لا تهمل ذلك الجانب الهام والخطير من الواقع الإنساني الذي يمارس أبلغ التأثير على الواقع المحسوس كما يتأثر به وهو الوعي ، وأدق لأن موضوعه أخفى وأكثر استعصاء على التسجيل والتعبير : وهي تلك الخطرات واللمع والبوارق التي تخطر بالنفس الإنسانية دون أن تلقى عادة ما تستحق من انتباه واهتمام .

من هنا يبرز أحد الفروق الهامة بين قصص تيار الوعي والقصص العادي، فبينما يهتم الأخير برسم صور لشخصياته تكون عناصرها مما يستطيع أي إنسان إدراكه في الحياة العادية ويهتم بالحبكة الخارجية باعتبارها ترتيبًا خاصًا لمجموعة من الوقائع في إطار محدد من الزمان والمكان – نرى الأول لا يهتم إلا بما يزخر به وعي الشخصية من مشاعر وانفعالات وأفكار يموج بعضها في بعض بشكل يجعله أقرب ما يكون إلى حالة الفوضى، ونراه لا يهتم بالحبكة الخارجية للقصة بل الداخلية التي حل فيها الزمن النفسي محل الزمن الميكانيكي الطبيعي، فطبيعة الغموض والروغان في مضمون الوعي الإنساني تستعصي على الحبكة الخارجية وعلى الزمن الطبيعي .

ومن هنا يتبين لنا أن واقعية تيار الوعي ليست واقعية فقط، بل هي واقعية موغلة في التجريب لأنه عنصر لا غناء عنه في تيار الوعي ..

ولقد استخدم كتاب هذا اللون من القصص لغة قريبة كل القرب من تلك التي استخدمها الشعراء الرمزيون . إن كل شعور أو إحساس أو فكرة . أو بعبارة أخرى كل لحظة من لحظات الوعي

تختلف عن أية لحظة أخرى مماثلة لها . ولهذا فلم يروا من الممكن التعبير عنها كما يجدها الشاعر في نفسه باستخدام اللغة التقليدية التي يكتب بها الأدب عادة . وبالإضافة إلى ذلك فلقد رأوا أن لكل شاعر شخصيته الفردية، وأن لكل لحظة من لحظات الوعي نغمتها المميزة لها وقانون ترابطها الخاص بها، وعلى هذا فقد كانت مهمة الشاعر عندهم أن يجد – أو يخترع – اللغة الخاصة التي هي وحدها قادرة على التعبير عن مثل هذه اللحظة، وعن شخصية الشاعر في الوقت نفسه ..

ومهمة الكاتب في تيار الوعي لا تختلف – من حيث التعبير – عن مهمة الشاعر الرمزي، ولهذا فقد كان لابد من أن يستخدم ذاك نفس اللغة التي يستخدمها هذا . ومن هنا قيل إن كتاب تيار الوعي بدأوا واقعيين وانتهوا إلى الرمزية، وأنهم أرادوا أن يكتبوا نثرًا فكتبوا شعرًا . ولعل هذا يمكن أن يبين أن الرمزيين لم يكونوا بعيدين عن الواقعية حين قرروا أن مهمة الأدب تتمثل في خلق الحياة لا في مجرد تسجيلها، لأن اقتصاره على التسجيل ينفي عنه المقومات الأساسية للفن ومن أولها الإبداع .

ومن هنا يتضح أن على قارئ تيار الوعي أن يعد نفسه للقيام بمهمتين أساسيتين إذا أراد أن يخرج بشيء من هذا اللون من القصص وأن يقدره قدره :

المهمة الأولى : أن يكون قادرًا على تأمل تيار الوعي المسجل أمامه في العمل القصصي ليستخرج منه دلالاته الكامنة فيه .

المهمة الثانية : أن يكون قادرًا على إدراك إيحاءات تلك اللغة المستخدمة والتي لا تختلف عن لغة الشعر الرمزي إلا قليلاً . وأما بالنسبة للمهمة الأولى فلأن قارئ تيار الوعي لابد أن يختلف موقفه مما يقرأ عن موقف قارئ القصص العادي، ففي حين يكتفي قارئ القصص العادي بالجلوس إلى ما يقرأ مطالبًا الكاتب أن يجذب له انتباهه بما يكتب بشكل متصل – نرى مؤلف تيار الوعي هو الذي يطالب القارئ بأن ينظر في سجل عقل وضع موضع التأمل الدقيق، وهو في حالة تفكير، وأن يتعمق هذا السجل وأن يؤلف لنفسه منه قصة .

وعلى الرغم من أن الكاتب لا يضع أمام قارئه سجل مثل هذا العقل غفلاً من الترتيب فإن على القارئ – مع ذلك – أن يقدم من لدنه العلاقات التي تربط بين بعض العناصر التي قد تبدو متنافرة .

وبذلك يتسنى له أن يتمثل التجربة المعروضة أمامه، ومن هنا قيل، إن أعمال تيار الوعي لم تكتب لتقرأ بل كتبت لتعاد قراءتها، فالقراءة الأولى لا تعدو أن تكون استعراضًا لعناصر الوعي، أما القراءة الثانية فهي التي يتم فيها تحقق القارئ من كل تيار وعي يعرضه المؤلف أمامه وتمثله الحي لتجربته .

من هنا ، كان اختلاف مواقف القراء من العمل الواحد من أعمال تيار الوعي . فالقارئ المتراخي لا يلبث أن يضل طريقه وسط هذه الغابة المتشابكة الأغصان، ويعجز عن إدراك دلالات ما يرن في سمعه من أصوات ربما لا تكون قد خطرت له من قبل . أما القارئ اليقظ فهو قادر على تمييز ما يعرض لبصره وسمعه من مرئيات وأصوات .

أن العمل من أعمال تيار الوعي ينبغي أن يقرأ كما تقرأ القصيدة الرمزية أي باعتباره كلاً عضويًا واحدًا دون أن ننظر إلى عنصر من عناصره نظرة منفصلة ..

وعلى الرغم من كثرة الخصائص التي يتميز بها قصص تيار الوعي عن القصص العادي فإن العلاقة بينهما ليست بحال من الأحوال علاقة تعارض . إن الحياة الأدبية تتسع لكلا النوعين من

القصص ؛ لأن كلا منهما له مجاله، وموضوعاته، واهتماماته، وأسلوبه في العرض، وغاياته التي يختلف فيها جميعًا عن الآخر، ولا أدل على ذلك من أن كلا النوعين له وجوده في الآداب الأوروبية على الرغم من مضي ما يزيد على نصف القرن على نشأة تيار الوعي فيها ..

إن هذا اللون الجديد من القصص لا يزال يقطع مراحل تطوره الأولى في الحياة الأدبية العربية، ومع أنه لا يزال يلقى استجابات مختلفة لدى القراء – وهي نفس المشكلة التي واجهها في الآداب الأوروبية في أول نشأته – فإنه مما يبدو موضوع اتفاق أن ظهوره في القصص العربي كان له من الأثر ما لا يقل عما كان لظهوره في القصص الأوروبي . ففي كلتا الحالتين أضاف بعدًا جديدًا إلى الفن القصصي لم يكن له به عهد من قبل، وارتاد آفاقا جديدة من حياة الإنسان لم تحظ بها اللغة الإنسانية في كل تاريخها .

(٢)

إن هذه المجموعة التي تتكون من خمس قصص قصيرة لحسن البنداري والتي يسعدني أن أقدمها هنا للقراء – من خير نماذج قصص تيار الوعي وأنجحها .. وأحب أن أكرر هنا ما أشرت إليه

من قبل من أن القارئ لن يجد في هذه القصص ذلك النوع من الشخصيات الذي اعتاد أن يلقاه قبل ذلك في القصص العادي، وهو لابد مبادر برفض هذه الشخصيات إذا أراد أن يقيمها بالموازين التقليدية في نقد الشخصيات، وهو أيضًا غير واجد في القصص ذلك الطراز المألوف من الحبكة الخارجية التي ينتظم وقائع العمل القصصي فيها إطار من الزمن الميكانيكي الطبيعي الذي يقاس بالساعات والدقائق، وهو بعد هذا وذلك لن يجد تلك الطريقة المعتادة من السرد التي يؤدي بها القصص العادي والتي لا تكلف القارئ من العناء إلا ما يتطلبه الانتباه إلى سلسلة من الوقائع والأحداث تتوالى أمامه كما لو كانت مسجلة على شريط سينمائي .

فالكاتب يعرض أمامنا في هذه القصص الخمس القصيرة — خمسة تيارات وعى لخمس شخصيات مختلفة- عرضًا يعيننا على إدراك ما اعتمل في نفوس هذه الشخصيات من مشاعر وانفعالات وعواطف وأفكار وذكريات ورغبات، ويكشف لنا عن مدى تضارب هذه العناصر أو انسجامها في نفس كل شخصية منها .

وتيارات الوعي لدى هذه الشخصيات ليست مجرد مجموعات من الأفكار والمشاعر والذكريات الخ ... التي تتم في حالة استرخاء

كسول، وإنما هي تسجيل لنتيجة ملاحظة دقيقة من جانب الكاتب لعقول في حالة تفكير جاد . من هنا جاء ارتباط تيارات الوعي هذه بالواقع الخارجي لشخصياتها ارتباطًا وثيقا على أساس من علاقة الأفعال بردود الأفعال، وجاءت تلك القيمة الخاصة التي جعلت منها موضوعات صالحة لمجموعة من القصص القصيرة الناجحة ذات الطابع الواقعي الواضح .

ومن الطبيعي أن يستطيع القارئ أن يعثر في هذه المجموعة لا على خط التطور الفني لكاتبها فحسب – بل وعلى صورة المنعطفات البارزة في تطور مجتمعه أيضًا بعد أن يقف على الترتيب التاريخي للقصص بطبيعة الحال، وهذا الترتيب التاريخي كما يلي :

١- الفارس والعسكري .... نوفمبر ١٩٦٦

٢- أغنية .... نوفمبر ١٩٦٩

٣- المفقود .... يناير ١٩٧٠

٤- الصباح الأخير .... مارس ١٩٧٠

٥- الجرح .... إبريل ١٩٧١

وبالإضافة إلى هذا الترتيب التاريخي للقصص لابد للكشف عن خط التطور الفني لكاتبها في الفترة التي كتبت فيها – وهي ما بين سنتي ١٩٦٦ و ١٩٧١ – من إعطاء فكرة مجملة أيضًا عن مضمون كل قصة تمكن من الإشارة إليها في وضوح . وأجد من الضروري هنا أن أشير إلى حقيقة بالغة الأهمية وهي أن سرد مضمون هذه القصص لا يعطي الصورة الصحيحة عنها؛ لأن السرد يختلف في طبيعته عن طريقة العرض المتبعة في هذه القصص .

ولهذا لا ينبغي أن يؤخذ أي سرد لمضمون هذه القصص على أنه تلخيص لها أو محاولة لإعطاء صورة قريبة من الكمال عنها ؛ لأنه لا يعدو أن يكون إشارة إلى بعض الخصائص البارزة التي يمكن أن تكون موضوع نظر وحديث .

وفي ضوء الترتيب التاريخي للقصص ومعرفة بعض خصائصها البارزة يمكن أن يتبين أن القصة الأولى منها – (الفارسي والعسكري – نوفمبر ١٩٦٦) – تمثل نقطة تحول في خط التطور الفني لدى المؤلف، إلا أن هذا التحول على أي حال لا يعدو أن يكون تحولاً في التكنيك.

ففـي القصـة الأولـى يهتم الكاتـب اهتمامًـا متسـاويًا بـالظروف الخارجيـة المتصلة بالشخصيات وتيار الوعي . ولهذا تتيح قراءة القصـة معرفـة واضـحة بتلك الظـروف التـي عاشـتها الشخصيات المختلفة في القصة ، فالبطلة فتاة موظفة في شركة تطل على ميدان الأوبـرا بالقـاهرة وتتـردد علـى مكتبهـا فتـرتين أحـداهما صـباحية والأخرى مسائية . أما فيما يتصل بخلفية حياتها العامة . فهي تعيش مع أسرة يشقيها انتماؤها إليها، فالأب مسن فقير مقبل علـى الصـلاة والـذكر، ومتزوج من امرأة أخرى بعد أم الفتـاة التـي توفيت ولمـا يمض علـى وفاتهـا أربعون يومًـا .. وقد أنجب من زواجه الثـاني أطفالاً يستعين على نفقتهم براتب الفتاة الذي ظل ينتظره أعوامًا قبل تخرجهـا . ويعرف القارئ من القصـة أيضـًا أن زوجـة هذا الأب على علاقة بجار للأسرة وأن الفتاة على علاقة بشاب اعتادت لقاءه منذ شهور، وأن هذا الشاب قد بدأ يمل هذا اللقاء، وهو لهذا لا يـأتي فـي موعده الأخير معها الذي يمثل مع ما يحيط به من ظـروف موضوع القصة .

ولكننـا إذا تـذكرنا أن اعتمـاد الأب ماديًـا علـى الفتـاة، وخيانـة زوجة أبيها إياه؛ وغدر صاحبها بها – ظروف كان لها كل الأثر على سلوك الفتاة في القصـة – حتى لتذكرنا بطلـة القصـة بضـحايا

المجتمع في الأدب الرومانتيكي — أدركنا إلى أي حد يوجه الكاتب إلى الظروف الخارجية اهتمامًا لا يقل عن ذلك الذي يوجهه إلى تيار الوعي لدى الفتاة .

ولقد كان من نتيجة هذا الاهتمام بالظروف الخارجية أن كان لهذه القصة حبكة خارجية تواكب الحبكة الداخلية وتسير معها جنبًا إلى جنب، ذلك أن انتظار الفتاة صديقها وهي تطل على الميدان من نافذة مكتبها في الشركة، ثم نزولها بعد أن يئست من مجيئه، وذهابها إلى مكتب الشركة قبل موعد بدء العمل — كلها أحداث كانت لها آثارها الخارجية على تطور القصة وخاصة إذا علمنا أن هذه السلسلة من الأحداث تنتهي بحادثة خارجية أيضًا هي استسلام الفتاة لساعي الشركة وهو ما تنتهي به القصة .

وإذن فنحن أمام قصة تعرض أمامنا تيارًا لوعي هذه الفتاة على أساس من الملاحظة النفاذة والتسجيل الدقيق ، ولكنها لم تخلص بعد من التكنيك التقليدي للقصة القصيرة الذي يعني بالشخصية والحبكة الخارجية والإطار الزمني الطبيعي، وغير ذلك من الجوانب الفنية الأخرى للقصص العادي . من هنا مثلت هذه القصة — في رأيي — مرحلة انتقال في التطور الفني للكاتب، تلك المرحلة التي كانت

الاتجاهات الفنية للقصص العادي لا تزال تلح عليه، رغم أنه كان يشغل نفسه أساسًا بلون آخر من القصص .

أما القصص الأربع الأخرى : أغنية – المفقود – الصباح الأخير – الجرح – فتمثل مرحلة تالية لتلك المرحلة .. وتتميز المرحلة التالية هذه باتباع الكاتب تكنيكًا واحدًا محددًا هو تيار الوعي . وتكشف هذه القصص الأربع عن سيطرة الكاتب على هذا التكنيك، وتمكنه منه بشكل يتسم بالاستقرار وعدم التذبذب .. ففي كل قصة من القصص الأربع يجد القارئ نفسه أمام تيار وعي الشخصية الرئيسية فيها مسجلاً بشكل دقيق فاحص، وعلى الرغم من أن القارئ يستطيع أن يستشف بعض الظروف الخارجية من خلال تيار الوعي – فإن هذه الظروف الخارجية لا ينتظمها إطار زمني محدد بحيث تكون هي حبكة خارجية للقصة، وإنما هي ترد في القصة لما بينها وبين بعض عناصر تيار الوعي من علاقة . إن ما نرصده ونتتبعه في هذه القصص الأربع إنما هو العقل وحده في حالة انشغاله بالفكر الجاد في موضوعات لها تأثيرها وخطرها في حياته .

ففي قصة "أغنية" نجد إشارات إلى تماثيل الأسود على طرفي جسر قصر النيل وإلى سور الجسر، وإلى برج الجزيرة، ولكن الكاتب يشير إليها في ثنايا تتابع لحظات الوضوح في تيار وعي البطل . وتؤدي الإشارة إلى كل منها – بما يكسبها المؤلف من قوة الرمز – وظيفة فنية معينة، فالقارئ يرى البطل أمام الأسدين الرابضين على مدخل الجسر فتحدثه نفسه أن يجلس القرفصاء عند قاعدة أحد التمثالين حتى يجد بعض الراحة من الإحساس بالضياع والاغتراب الذي جعله لا يعرف نوع السيجارة التي كان يدخنها . ويخيل إلى أن تمثال الأسد غني بالرمز، فالإنسان المكدود قد أحب أن يجد الراحة والأمان عند رمز القوة والشجاعة .

ولا نلبث أن نرى تجسيدًا لأزمة البطل في ذلك الأعور الذي يطارح الحسناء الغرام على سور الجسر، فعلى الرغم مما بدا أول الأمر من استسلام الحسناء للأعور – فإن البطل رأى في هذه العلاقة اغتصابًا أحس أن واجبه يحتم عليه الصراع ضده، وتبلغ الأزمة ذروتها حين يتوغل البطل في الجسر فيرى الأعور والحسناء – على حافته – قد تبادلا فجأة السباب والشجار ثم يسقطان معًا في النهر ... وفي فترات اشتداد الأزمات كثيرًا ما ينقلب الإنسان بذهنه إلى فترات الرخاء ذات الذكريات المضيئة

التي سبقتها .. وهذا ما يرمز إليه تطلع البطل إلى أعلى برج الجزيرة حيث كان ينعم قبل ذلك بقضاء ساعات سعيدة . وتلوح للبطل فرصة أداء واجبه حين يرى مطاردة الأعور للحسناء فيتدخل إلى جانبها .. ولكن الكاتب لا يدعنا نعرف نتيجة الصراع .

وهكذا نرى كل شيء من خلال وعي البطل الذي تكتسب فيه الأشياء الخارجية معاني رمزية من شأنها أن تغني الحبكة الداخلية للقصة بدلاً من أن تفرض عليها حبكة خارجية كما حدث في قصة الفارس والعسكري .

ونجد في قصة "المفقود" حركة داخلية خالصة : فالقصة ليست إلا رصدًا لتيار وعي إنسان مشلول يرقد في سريره يتأمل ساقيه وبعض الصور والتماثيل المعلقة على حائط الحجرة . والموضوع الذي يشغل وعيه بالأفكار والانفعالات والعواطف هو علاقته بزوجته العضو في إحدى الجمعيات الخيرية التي تخرج إليها في كامل زينتها، ولا تعود إليه إلا بعد ساعات طويلة تاركة له مهمة البقاء وحده وتناول دوائه، وقضاء حاجته بنفسه، وهو الذي لا يستطيع الحراك .

والواقع أن مرور هذه الساعات الطويلة واضح كل الوضوح في القصة من خلال الإشارة إلى الغسق والليل وغير ذلك من العناصر الزمنية المألوفة، ولكن هذا لم يفرض على القصة إطارًا زمنيًا ميكانيكيًا مطلقًا، فلقد نجح الكاتب إلى أبعد حد باستغلال هذا الزمن استغلالاً رائعًا في إبراز بعض العناصر النفسية في وعي البطل وبخاصة وطأة انتظار قدوم الزوجة، فمن هذا الزمن كان ذلك التصاعد بالحالة النفسية للبطل وتقدمها باطراد نحو الساعة الحاسمة وهي ساعة دخول الزوجة .. وفي رأيي أن هذه القصة يمكن أن ترقى في مدارج أدب تيار الوعي – إلى مراتب لا يرقى إليها إلا أدب أولئك الكتاب المكتملين؛ فتيار وعي "المفقود" كما سجله الكاتب يعتبر من القطع الفنية الفذة في هذا اللون من الأدب .

ويلجأ الكاتب في هذه القصة إلى حلمين يلوذ بهما البطل من وعيه المتلاطم . وعلى الرغم من أن الأحلام ليست موضوعًا لأدب تيار الوعي لأنها تنتمي إلى عالم اللاوعي – فإن الارتباط الذي أقامه علم النفس بين عالمي الوعي واللاوعي – أعان الكاتب على أن يتخذ من هذين الحلمين وسيلة للكشف عن جوانب من حياة البطل النفسية . وكان نجاحه في استخدامهما في هذا الصدد لا يقل عن نجاحه في استخدام عناصر الزمن الطبيعي التي سبقت الإشارة

إليها .. وقد مهد الكاتب لكل من الحلمين أحسن تمهيد .. فقد مهد للأول بعبارة "انشطرت وانتهى الأمر" وهي عبارة غنية بالإيحاء بحكم عنيف لا نقض فيه كما يقال يأتي بعدها الحلم مصورًا هذا الحكم . فالبطل يرى نفسه في هذا الحلم سباحًا ممتازًا يدخل مباراة في السباحة . ولا يحول بينه وبين الفوز بالمركز الأول إلا شلل مفاجئ قبيل نهاية الشوط لا يفيق منه إلا بين أيدي الأطباء والممرضات ليظل كذلك إلى الأبد .

ويمهد الكاتب للحلم الثاني تمهيدًا يتسم بالوضوح وذلك في عبارتي "يغريني النوم .. أتثاءب" ليرى نفسه وزوجته في هذا الحلم جالسين في هلال مئذنة تطل على شاطئ نهر، وتحتهما الناس، بينما أطفال يضربون الماء الفضي بأقدامهم الصغيرة . وهو حلم يكشف عن جانب من جوانب اللاوعي غير الجانب الذي يكشف عنه الحلم السابق، وهو جانب مشاعر السعادة التي وجدها البطل مع زوجته . ولكنهما لا يلبثان أن يذهبا إلى الجمعية الخيرية التي ترتبط في وعي البطل ولا وعيه على السواء بأمرّ الذكريات . وهناك يشهد بعينيه ما يعتبره أدلة على علاقة زوجته بشاب أنيق فارع الطول، ويظل يحترق ورئيسة الجمعية العجوز تجلده بطاقم أسنانها الصناعية .

وواضح أن الحلمين رغم اختلاف طبيعتهما يكشفان عن ظاهرة واحدة عند البطل هي الشعور بالعجز المطبق: العجز العضوي، والعجز المعنوي اللذين يكشفان عن ظاهرة واحدة عندما يمسكان بيديه عن الامتداد لخنق زوجته .

وتشترك القصة الرابعة "الصباح الأخير" – مع القصة السابقة – المفقود – في استغلال الوقت الطبيعي في الكشف عن بعض جوانب الوعي عند البطل . وبطل هذه القصة جندي يحتم عليه واجبه أن يغادر زوجته التي تنتظر مولودًا ليستقل قطار السادسة صباحًا ليذهب إلى وحدته العسكرية التي تبعد مسافة بعيدة عن المدينة. ولكن تردده بين السفر والبقاء يمنعه من ركوب قطار السادسة، فيخرج إلى ميدان رمسيس، ويراقب التمثال ويود لو يستطيع أن يتسلقه إلى القمة – وهي ظاهرة نراها في القصة الأولى حين تتمنى البطلة لو استطاعت تسلق تمثال إبراهيم باشا – ولعل هذا تعبير عن الرغبة غير المشبعة لدى هذه الشخصيات في النهوض بأنفسهم من الوهدات التي انحدرت بهم ظروفهم إليها . غير أن بطل هذه القصة – شأنه في ذلك شأن بطل القصة الثانية – أغنية – أكثر إيجابية من بطل القصة السابقة المفقود . ذلك أنه لا يلبث أن يعود إلى رصيف المحطة ويتعلق بآخر عربة من قطار

السابعة الذي يتحرك به نحو الوحدة وهو موقف يتسم بإيجابية واضحة .

ويبلغ التركيز على تيار الوعي – أقصى درجاته عند الكاتب في القصة الخامسة والأخيرة "الجرح" فالقصة تحاول أن تعطي صورة لوعي جندي من قوات الدفاع الجوي على امتداد لحظات تبدأ من محاكمته والانتهاء منها بالعفو عنه للمرة الثالثة . ثم قبوعه في حفرة بسبب غارة مفاجئة – يرقب الطائرات المغيرة .. ومن استعراض وعي هذا الجندي ندرك أنه شخصية لا تقل تمزقا عن أي من شخصيات القصص الأربع السابقة وهو ممزق بين تعلقه العقلي بواجبه وامتيازه في أدائه حتى لقد نال وسام الشجاعة – وتعلقه العاطفي بالجانب الأسري في حياته. وعلى الرغم من تضارب القيم وتصارعها في نفس البطل فإننا نراه في آخر القصة – وهو يراقب الطائرات المغيرة من إطار تلك الفتحة المستديرة في أعلى الحفرة التي تمثل عالمه الحسي – نراه يقرر محاولة الهروب للمرة الرابعة للتثبت من خيانة زوجته له.

وبالإضافة إلى هذا الاكتمال التدريجي في التركيز على تيار الوعي نرى اكتمالاً في السيطرة على وسائله، فقد استخدم الكاتب

في قصصه لغة رمزية؛ لأن هذه اللغة هي وحدها القادرة على التعبير عن مضمون الوعي عند الإنسان فالأشياء في وعي الإنسان لا توجد - كما توجد في الخارج – مجردة من المشاعر والأحاسيس والعلاقات التي تربطها بأشياء أخرى . ولا تستطيع اللغة إذا ما استخدمت استخدامًا عاديًا أن تحيط بكل ما يتصل بهذه الأشياء في نفس الإنسان .

وقد استخدم الكاتب جملاً وتعبيرات قصيرة وهي أنجح وسيلة للتعبير عن عناصر الوعي المتسمة بالاضطراب وسرعة الحركة والروغان، وتقصر لحظات ظهور أي عنصر منها واختفائه . ولهذا جاءت هذه الجمل القصيرة أكثر صدقًا وواقعية في عرضها لتيارات الوعي المختلفة.

ولقد استطاع الكاتب أن يستخدم الإشارة إلى التاريخ، وإلى الأساطير، وإلى الأعمال الأدبية الكبرى استخدامًا ناجحًا .. وذلك عن طريق الربط بين التاريخ أو الأسطورة أو العمل الأدبي من ناحية وبين عناصر الوعي المعروض أمام القارئ من ناحية ثانية . ويرجع ذلك إلى توفيق الكاتب في الوقوع على تلك الجوانب من

التاريخ والأساطير والأعمال الأدبية المرتبطة بمشاعر ومعان خاصة في أذهان القراء ..

من هذه الزاوية كانت إشارة الكاتب في القصة الأولى – الفارس والعسكري – إلى تحفة كزانتزاكي (زوربا اليوناني) – حيث قارنت بطلة القصة بين نفسها وبين إحدى شخصياتها "سورمولينا" ، واستغلاله في القصة الثانية – أغنية – استغلالاً بارعًا لقصة نوح التي مثلت خير تمثيل الجو النفسي السائد في القصة – والذي يشعر به من يسبح في الطوفان يبحث لنفسه عن (جودي) يستوي عليه .

ومن هذه الزاوية أيضًا كانت إشارة الكاتب في القصة الثالثة المفقود – إلى (في انتظار جودو) لأن انتظار البطل زوجته كان أشبه ما يكون بانتظار "جودو" ، وهكذا كانت الإشارة إلى مواقع الصراع بين هيكتور وأخيل في (الياذة هوميروس) في القصة الرابعة الصباح الأخير . أما القصة الخامسة فتكتفي بالإشارة إلى بعض الشخصيات التاريخية والعسكرية الفذة كالاسكندر، ونابليون.

ومما لا يحتاج إلى إشارة خاصة هنا أن هذه الإشارات إنما تتم في إطار تيار الوعي عند الشخصيات . ومن هنا كانت هذه

الشخصيات والأحداث التاريخية، وهذه الأعمال الأدبية بمثابة المرايا التي ينعكس عليها تيار وعي الشخصية، حتى يستطيع القارئ أن يربط في سهولة ويسر بين شخصيات القصص وتلك الشخصيات التي تخطر في وعيها بين التاريخ أو الأساطير أو الأعمال الأدبية .. لقد كانت هذه الإشارات بمثابة أضواء كاشفة سلطها الكاتب على الجو النفسي العام في كل قصة لكي يعين القارئ على أن يحد طريقه وسط غابات الوعي لدى شخصيات قصصه . وقد اتخذ في سبيل هذا العون وسيلة أخرى وهي أن يميز بين الذكريات وبين العناصر الأخرى في الوعي باعتبار أن الذكريات هي بمثابة التدخلات التي تفرض نفسها على المشاعر والعواطف والأفكار والآراء لانتمائها إلى زمن أسبق . ولهذا عمد إلى طبعها بخط مميز .

هذا عرض سريع للتطور الفني لدى الكاتب من حيث استخدامه لتيار الوعي، واستغلاله لوسائله قام على أساس الترتيب التاريخي للقصص وعلى إعطاء فكرة عن مضمون كل قصة . وقد سبقت الإشارة إلى أن هذين الأساسين لا يكشفان عن التطور الفني لدى الكاتب فحسب بل وعن إبراز التطورات التي تمت في مجتمعه خلال الفترة الزمنية التي كتبت فيها القصص، باعتبار أن تيارات

الوعي عند شخصيات قصصه ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذه التطورات . فيلاحظ أن بطلة القصة الأولى – الفارس والعسكري – أشبه ما تكون بأبطال القصص الرومانتيكية التي تصورهم ضحايا للأوضاع الفاسدة في مجتمعاتهم، في حين أن أبطال القصص الأربع الأخيرة يشتركون جميعًا في أنهم شخصيات ممزقة وقلقة . وقد لا تكون معالم الرؤية مطموسة أمام هذه الشخصيات ولكنها جميعًا لا تملك من الوسائل ما يوصلها إلى الغايات، ولهذا فإننا نرى بعض هذه الشخصيات يقع فريسة للعجز المطبق كبطل قصة المفقود، وبعضها يحاول ولكننا لا ندري عن محاولته شيئًا كبطل قصة أغنية، وبعض ثالث يحاول ولكن من خلال التردد كبطل قصة الصباح الأخير، ومن خلال التمزق كبطل قصة الجرح.

ومرة أخرى نفزع إلى الترتيب التاريخي للقصص ليكشف لنا عن الارتباط الوثيق بين وعي شخصياتها وتطورات وعي المؤلف في الفترة التي كتبت فيها القصص فيما بين سنتي ١٩٦٦ و ١٩٧١. ويلاحظ أن القصة الأولى من بين هذه القصص الخمس كتبت قبل ١٩٦٧ . وأن الأربع الباقيات كتبت بعد هذه السنة . ألا نستطيع في ضوء هذه الحقيقة أن نقول : إن تلك الشخصيات

الممزقة التي نراها في القصص الأربع الأخيرة ليست إلا نتاجًا طبيعيًا لمجتمع القصة الأولى ؟ ذلك المجتمع المليء بالغدر والخيانة والاستغلال والذي لا تحتل فيه كل قيمة مكانتها الطبيعية حتى أننا لنرى العسكري في آخر القصة يصعد إلى مكان الفارس والفارس ينزل إلى مكان العسكري !! .

وعلى الرغم من أن العجز صفة مشتركة بين أبطال القصص الأربع الأخيرة إلا أن القارئ يستطيع أن يدرك التفاوت بينهم في ذلك . ويستطيع أيضًا أن يدرك من خلال هذا تناوب التشاؤم والتفاؤل على نفس الكاتب .. وواضح أن التشاؤم يبلغ مداه في قصة المفقود – يناير ١٩٧٠ – فالبطل في هذه القصة عاجز عجزًا مطبقًا في حين أن بطل القصة السابقة عليها أغنية – نوفمبر ١٩٦٩ – كان أكثر تفاؤلاً لأنه يحاول وإن كنا لا ندري عن نتيجة محاولته شيئًا . أم القصتان الرابعة – الصباح الأخير مارس ١٩٧٠ – والخامسة الجرح إبريل ١٩٧١- فالتفاؤل فيهما واضح رغم التمزق والحيرة والتردد والمحاولة فيهما على التوالي أكثر إيجابية وحسمًا، ولعل مما لا يخلو من دلالة أن الكاتب اختار بطلي هاتين القصتين الأخيرتين – جنديين مقاتلين ..

وبعد فهذه محاولة لإلقاء الضوء على تلك المجموعة القصصية التي حاولت ارتياد بعد جديد وخصب من أبعاد القصة المعاصرة ، وحققت – في تقديري – تفوقًا ملحوظًا ، فضلاً عن أنها تأكيد بأن ارتياد القصص العربي لهذا البعد الجديد صائر إلى اتساع المدى والاطراد لا إلى الانكماش والتوقف .

د. عبد الحكيم حسان

أغسطس ١٩٧١

الفهرس

القصة :	الصفحة
١- الفارس والعسكري	٧
٢- أغنيـــة	٣٣
٣- المفقـود	٥١
٤- الصباح الأخير	٦٧
٥- الجـــرح	٨٣
٦- أدب البعد الجديد .. دراسة نقدية للقصص للدكتور/ عبد الحكيم حسان................	١٠١
الفهرس	١٣٤

كتب أخرى للمؤلف

أ - القصص :

- **سلوى الروح :** (رواية) ، ط ٢ دار الإبداع ٢٠٠٦ .
- **الكلام :** قصص ، ط (١) دار الفكر العربي ١٩٨١، ط (٢) الآداب ١٩٩١ .
- **أمواج الفردوس :** قصص ، ط (١) الأنجلو ٢٠٠٥ .
- **يوم :** (قصص) ط (١) مكتبة أجيال ٢٠٠٨ .
- **فوق الأحزان :** (رواية) هيئة قصور الثقافة (تحت الطبع).

ب – الكتب :

- **فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ :** ط (١) ١٩٨٤ الكويت ، ط (٢) الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .
- **قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم :** ط (١) الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .
- **تذوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي :** ط (١) الأنجلو ١٩٨٩ .
- **مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي :** ط (١) الأنجلو ١٩٩١ .

- **الخطاب النفسي في النقد العربي القديم :** ط (١) الأنجلو ١٩٩٣، ط (٢) مكتبة الآداب ٢٠٠١ ، ط (٣) مكتبة الآداب ٢٠٠٦ .

- **فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث :** ط (١) الأنجلو المصرية ١٩٩٥ .

- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر :** ط (١) الأنجلو ١٩٩٥ ، ط (٢) الأنجلو ١٩٩٩ .

- **الصنعة الفنية في التراث النقدي :** ط (١) مركز الحضارة العربية ١٩٩٩ .

- **طاقات الشعر في التراث النقدي :** ط (١) الأنجلو ٢٠٠٠ ، ط (٢) الآداب ٢٠٠٧ .

- **نظرية الإبداع الشعري عند النواجي :** ط (١) الأنجلو ٢٠٠٠.

- **إحكام النص الشعري في التراث النقدي والبلاغي :** ط (١) الأنجلو ٢٠٠١ ، ط (٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨ .

- **تحليل النص الأدبي :** دراسات في الأجناس الأدبية (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ، د. الزهراء بدوي) ط (١) الأنجلو ٢٠٠١ .

- **تجليـات الإبـداع الأدبـي :** ط (١) الآداب ٢٠٠٢ ، ط (٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨ .

- **أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق :** ط (١) الآداب ٢٠٠٣ .

- **الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق :** ط (١) الآداب ٢٠٠٣ .

- **البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ :** دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦، ط (١) الأنجلو ٢٠٠٤ .

- **مرايا التجلي : رؤى نقدية كاشفة :** ط (١) الأنجلو ٢٠٠٥ .

- **فيض القلم : مقالات في الثقافة والأدب :** ط (١) الأنجلو ٢٠٠٥ .

- نجيب محفوظ حالمًا بالقمر : ط (١) الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦ .

الناشر : دار الإبداع للصحافة للنشر والتوزيع

٩٥٣ كورنيش النيل ـ مصر القديمة

ت : ٢٥٣١٢٣٢١ ـ٢٥٣٢٦٧٤٤ـ

٠١٠٦٦٣١٥٨٤ ـ٠١٢٢٢٤٦٠٦٨